مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

حالة الدكتور حسن

الإخـــراج الـفـنـى :

مجـــــدى حجـــــازى

الغـلاف بريشة الفنان :

ســيـد عبـد الفـتـــاح

لا تسألوا الناس

اسألوا الظروف ! !

إحسان

حالة الدكتور حسن

ـتبة إحسان عبد القدوس الكاملة ● مكتبة إحسان عبد القدوس الكاملة ●

كنت قد انتهيت من بحث آخر « حالة » عرضت علىّ فى ذلك المساء .. وطويت مذكراتى الطبية ، وبدأت استعد لمغادرة العيادة والذهاب إلى البيت..

ودخل مساعدى يعرض علىّ كشف الحالات الجديدة التى اتصلت بالعيادة ، وحدد لكل منها موعدا .. بعد أسبوع على الأقل !

ولمساعدى طريقة خاصة يحاول بها دائما أن يقدم موعد إحدى الحالات على الأخرى .. إنه إنسان طيب ، تثير عاطفته أحيانا حالة معينة فيحاول أن يساعدها .. وهو فى الوقت نفسه يعلم أنى حريص على النظام الذى وضعته لاستقبال مرضاى - أو لاستقبال الحالات - ويعلم أنى اعتبر كل الحالات متساوية فى الأهمية والخطورة ، إلى أن تشفى ، باستثناء حالات عاجلة يكون فيها المريض يعانى أزمة قد تنتهى بالقضاء على حياته .. لذلك يضطر مساعدى أن يلجأ إلى هذه الطرق الخاصة عندما يتحرك قلبه الطيب شفقة على إحدى

الحالات .. ورغم أنى أفهم تماما هذه الطرق التى يتبعها.. أفهمها بمجرد النظر فى عينيه ، إلا أنى غالبا ما أستجيب لها ، تقديرا لقلبه الطيب .. وثقتى به !

وقال مساعدى ، وهو يعرض علىّ قائمة الحالات ، ولا ينظر فى عينى :

— إن السيدة حرم الدكتور حسن عزمى لا تزال تنتظر !

ونظرت إليه فى دهشة .. فانى أسمع عن اسم الدكتور حسن عزمى من زمان .. إنه من ألمع رجال الاقتصاد فى مصر ، وكان وكيلا للبنك الأهلى ، ثم أصبح رئيسا لاتحاد الصناعات رغم أنه لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره .. وقد سبق أن التقيت به فى عدة اجتماعات ، وراعنى منه هدوؤه .. هدوء أكثر من اللازم .. وحرصه الشديد المتعمد فى كل كلمة يقولها ، كأن كل كلمة يوقع بها شيكا بألف جنيه.. ولاحظت فيه أيضا بعض الغرور الذى يبدو فى مظهره ، وتصرفاته .. ورغم ذلك فقد كنت معجبا به .. كان فيه شىء يجذبك إليه ، ويجعلك تصبر إلى أن تتلقف منه هذه الكلمات النادرة التى يوقع بها الشيكات .

وأخفيت دهشتى بسرعة عن مساعدى ، فقد كنت اعلم أنه قد بدأ يلجأ إلى إحدى هذه الطرق التى يستغلها للاخلال بنظام العيادة .. أن يترك المريض ينتظر إلى أن انتهى من بحث آخر حالة..

وقلت له ببرود :

— مواعيد العيادة انتهت ؟

قال وهو ينظر إلىّ من تحت رموش منكسة :

— لقد جاءت فى الساعة السابعة ، ثم خرجت ، وعادت منذ نصف ساعة .. وهى تقول لى إنها تريد استشارة لن تستغرق أكثر من خمس دقائق !

قلت وأنا ابتسم له أطيّب خاطره :

— دعها تتفضل ..

ودخلت ..

سيدة جميلة لا تزيد على الثلاثين .. جمالها مهذب .. ليس على وجهها كثير من المساحيق .. وشفتاها مصبوغتان بأحمر هادىء.. وتسريحة شعرها الأسود تدل على اتزانها .. رشيقة فى حركاتها .. والصحة تبدو على وجهها .. بشرتها مشدودة ، وعيناها صاحيتان، وابتسامتها ابتسامة ثقة بالنفس .

وقالت وهى تمد يدها تصافحنى :

— آسفة يا دكتور .. كان يجب أن أراك ..

ودعوتها إلى الجلوس على المقعد الكبير الموضوع بجانب مكتبى، وجلست خلف المكتب ، وفتحت مذكراتى الطبية من جديد ، وأنا حريص على ألا ابدو كأنى أعرفها أو أعرف زوجها ..

وقبل أن اسألها الأسئلة التقليدية عن اسمها وسنها ، قالت بسرعة كأنها تستمهلنى قبل أن أكتب :

— ليس أنا .. إنه زوجى !

قلت وأنا لا أستطيع أن أخفى دهشتى :

— الدكتور حسن !

قالت وهى تحول عينيها عنى :

— نعم .. منذ مدة طويلة تنتابه حالات مرضية عجيبة .. إنه فجأة يفقد القدرة على الكلام .. ويبدو كأنه أصيب بالشلل .. لسانه يثقل إلى حد لا يستطيع تحريكه ، وتنتاب يده اليمنى رعشة .. وتستمر هذه الحالة يومين أو ثلاثة .. ثم تنتهى .. تنتهى فجأة أيضا .. ومنذ عامين ونحن نطوف على الأطباء ، فى مصر والخارج.. وأكدوا كلهم أن ليس به شىء عضوى يمكن أن يؤدى إلى هذه الحالة .. كل التحاليل وصور الأشعة أثبتت سلامة قلبه ، وسلامة جسده .. وأجمع ثلاثة من الأطباء على أن هذه الحالة قد تكون نتيجة أزمة نفسية .

وسكتت وهى تتنهد ، وعلى وجهها مسحة من الأسى ..

وقلت أحاول أن أخفف عنها :

— هذا محتمل .. إن الأزمات النفسية تشتد أحيانا إلى حد أن تؤثر فى بعض مراكز المخ ، فتصاب بعض أعضاء الجسد بالشلل المؤقت .

قالت :

— أعرف ذلك .. ولكن المشكلة هى أن زوجى يرفض أن يذهب إلى طبيب نفسانى .

— هذه مشكلة كثير من المثقفين .. إنهم قد يؤمنون بعلم النفس ، ويقتنعون به .. ولكنهم لا يؤمنون بالأطباء النفسانيين ولا يقتنعون بهم :

قالت كأنها تلومنى :

— لمـــاذا ؟

قلت :

— إنه نـوع من الغـرور الثقافى .. والواقـــع أن الانسان لا يذهب إلى الطبيب ليشخص له مرضـه ، ولكنه يذهب إليه ليصف له الدواء.. إن الانسان يعرف غـالبا مرضه .. يعرف أنه مصاب فى كليته .. أو فى أمعائه .. أو أن إصبعه مجروح.. ولكنـه لا يعـرف الـدواء .. لأن معـــرفـة الـدواء تحتـاج إلى تخصص .. ولأن استعمال الـدواء يحتاج إلى الحرص ، وقـد يكـون خطرا .. لـذلك يـذهب المريض إلى الطبيب ليصف لـه الدواء ، ويتناولـه وهو واثق من أنه لا يتعـرض لخطر .. أما طب النفس فليس فيه دواء .. ليس هناك أدوية لشفاء النفس كالأدوية التى تشفى الصداع ، والـزكام ، والمغص .. إنه طب يقوم على التشخيص وحده .. أو التحليل .

قالت كأنها تريد أن تقنعنى بأهميتى :

— ولكن التشخيص أيضا يحتاج إلى طبيب ..

قلت وأنـا ابتسـم لأطمئنهـا إلى أنى لم أفقـد إحســـاسى بأهميتى :

— هذا ما قصدته بتعبير الغـرور الثقافى .. فنظريات علم النفس، وتجارب علم النفس ، أشبـه بالقصص المثيرة .. إنها تجذب كثيرا من القـراء .. وكتب علم النفس تباع فى المكتبـات وعلى الأرصفـة، كما تبـاع قصص أرسين لوبين والفـرســان الثلاثة.. وقـد كان علم النفس يعتبر إلى عهد قريب نـوعا من الثقافة العامة ، أكثـر منه علما يحتاج إلى تخصص .. لذلك فأكثـر المثقفين يعتقـدون أنه يكفيهم أن يقـرأوا كتبـا فى علم

النفس ، ليستغنوا عن الطبيب النفساني .. والواقع أن بعضهم ربما قرأ في علم النفس أكثر من كثير من الأطباء النفسانيين .

قالت في عصبية :

— إن زوجي يقرأ كثيرا في علم النفس .. مكتبته كلها لا تضم إلا كتبا في الاقتصاد ، وكتبا في علم النفس .. فهل يكفي ذلك ليستغني عن الطبيب النفساني .. هل يستطيع أن يعالج نفسه :

قلت في هدوء :

— لا ..

قالت وهي تضغط بيدها على حافة مكتبي :

— إذن ما العمل ، وهو يرفض أن يذهب إلى طبيب يحلل له نفسه ؟

قلت :

— لا أدري .. ولكنه يجب أن يذهب إلى الطبيب بإرادته واقتناعه .. إن إجباره أو الضغط عليه ليذهب إلى طبيب لن يفيده .. لن يؤدي إلى نتيجة سريعة .

قالت وهي أكثر حدة :

— هذا ما جئت لأستشيرك فيه .. منذ عام وأنا ألح عليه في أن يأتي إليك .. حاولت إقناعه بكل وسيلة .. ولكنه يرفض .. ويصر على الرفض .. إني لم أعرفه أبدا عنيدا إلى هذا الحد ..

قلت :

— هل اقترحت عليه أن يسافر إلى الخارج ، ويعرض

نفسه هناك على أحد الأطباء النفسانيين .. إن بعض المثقفين قد تنقصهم الثقة فى الأطباء المحليين .. أطباء مصر .. وبعضهم ، ممن يعترفون بأنهم فى حاجة إلى طبيب نفسانى، يحسون كأنهم يكشفون عن عورة .. ويفضلون أن يكشفوا عورتهم أمام طبيب أجنبى .. بدلا من أن يكشفوها أمام طبيب من بنى وطنهم .. و ..

قالت تقاطعنى :

— اقترحت عليه أن يعرض نفسه على طبيب نفسى فى إنجلترا.. أو فى ألمانيا .. وقد سافر إلى إنجلترا وألمانيا عدة مرات خلال هذا العام ، ولكنه لم يعرض نفسه على أحد .. مشكلته أنه لا يؤمن بالأطباء النفسانيين .. بمهنة الطبيب النفسى ..

قلت كأنى أحادث نفسى :

— أحسن ..

قالت فى دهشة :

— ما هو الأحسن ؟

قلت :

— أحسن أنه لم يعرض نفسه على طبيب أجنبى !

قالت وقد اشتدت الدهشة فى عينيها :

— لماذا ؟

قلت :

— لأن التحليل النفسى ، يعتمد فى كثير من نواحيه على تحليل البيئة والمجتمع الذى يحيط بالمريض ، والأطباء الأجانب يجهلون عادة تفاصيل هذه البيئة وهذا المجتمع ..

إن خير من يحلل نفسية مريض أمـريكى ، طبيب أمريكى .. والمريض الألمانى فى حاجة إلى طبيب ألمانى .. وهكذا ..

قالت :

— والنتيجة .. كيف آتى به إليك ؟

قلت :

— لا أدرى ..

قالت وقد عادت تحتد :

— ولكن هذا ما جئت لاستشارتك فيه ..

وسكتّ .. أفكر ..

وحنت رأسهـا ، ثم تلمست حقيبتهـا استعـدادا للانصراف.. وأنا انظر فى وجههـا وأرى لهفتها على زوجها .. وأحس بـدافـع قـوى يـدفعنى إلى نيل ثقتهـا واحترامهـا .. وأحس فى الـوقت نفسـه بمسئـوليتى عن شخصيـة لامعـة كشخصيـة الـدكتور حسن عـزمى .. فأفكـر أكثـر .. وعقلى يدور داخل رأسى بسرعة ليجد حلا لمشكلة الدكتور حسن .

وقـامت من مقعـدهـا ، فى تباطـؤ كأنها تشعـر بـآلام فى مفـاصلهـا ، وخيل إلىّ أن بشرتها المشـدودة ، قـد بـدأت تتكـرمش .. وقـالت فى صـوت كسير دون أن تمد يـدهـا لتصافحنى :

— آسفـة يـا دكتـور .. أزعجتك .. إنى واثقـة أن هـذه الزيارة ستكون سرا بيننا .

وفجأة لمع فى ذهنى خاطر ، وقمت واقفا ، وقلت متجاهلا الإهانـة التى وجهتها لى وهى توصينى بالاحتفـاظ بسرها .. وسر مهنتى

— ألا يعلم الدكتور حسن بزيارتك لى ؟

قالت :

— لا ..

قلت بسرعة :

— ألم تذهبى إلى طبيب نفسى آخر قبل ذلك ، وعلم بذهابك إليه ؟

قالت :

— لا .. أنت أول من أعرض عليه مشكلتى .. ومشكلة الدكتور حسن ..

قلت :

— إذن ، قولى له ..

قالت وحاجباها يرتفعان فوق عينيها ويرسمان الدهشة :

— أقول له ماذا ؟

قلت فى حماس :

— قولى له إنك جئت إلىّ ، وإنك اطلعتنى على حالته ..

قالت :

— قد يغضب ..

قلت :

— أريده أن يغضب .. وغضبه سيؤدى إلى أحد احتمالين.. إما أن تسوء حالته النفسية إلى حد أن يشعر بحاجته إلى طبيب نفسى.. فيأتى إلىّ .. وإما ألا تسوء حالته عما هى عليه ولكنه يحس أنه قد جرح فى كبريائه وفى غروره فيأتى ليبرر زيارتك لى ، ويعتذر عن تصرفك ، وينكر ما قلته لى ، وفى هذه الحالة سأحاول استدراجه للعلاج ..

ورفعت رأسها وبين شفتيها ابتسـامة صغيرة ، ثم عادت وسحبت ابتسامتها ، وارتفع الكدر فى عينيها ، وقالت :

— ولكن لنفرض أن حـالتـه سـاءت ورغم ذلك لم يأت إليك .. بقى على عناده ..

قلت مؤكدا :

— إنه سيأتى قطعا .. وإذا لم يأت فى خلال أربعة أيام .. تعـالى أنت إلىّ مرة ثـانيـة .. ثم عودى وبلغيـه أنك جئت إلىّ وإنك رويت لى مزيدا من التفاصيل .. وكـررى هذه الزيارات إلى أن يأتى هو ، سواء للعلاج .. أو لتبرير تصرفك .

قالت فى أسى :

— أليس هناك وسيلة أخرى ؟

قلت :

— اعترف أنها ليست وسيلة طبيعية .. ولكننا مضطرون إليها..

قالت وهى تزفر أنفاسها :

— كما ترى ..

ثم صـافحتنى وهى تبتسم ابتسامة صغيرة ..

وفتحت لها الباب ، بعـد أن حددت لها موعدا بعـد أربعة أيام ..

وسجلت موعـد زياراتها لى فى مذكراتى الطبيـة ، ثم عدت إلى بيتى وأنا أفكر فى حالة الدكتور حسن ..

والدكتور حسن رجل مثقـف .. والمثقفون هم أتعب أنواع المرضى النفسـانيين؛ لأن ثقـافتهـم تقف دائما حـائلا بينهم وبين الاستسـلام للطبيب ، ثم الاستسـلام لأنفسهم .. إن

هذه الثقافة تمثل نوعا من الإرادة .. إرادة التمرد .. التمرد على الطبيب ، والتمرد على أنفسهم .. وأغلب جلساتى مع المرضى المثقفين تضيع فى مناقشات ثقافية بينى وبينهم .. يحاول فيها المريض أن يتباهى بثقافته ، بل أحيانا أحس أنه يحاول أن يتخذ مكان الطبيب ، ويضعنى فى مكان المريض ..

والمثقفون أكثر تعرضا للحالات النفسية ، من الجهلاء ، أو ممن هم أقل ثقافة .. وقد سبق أن قلت فى إحدى حلقات هذه المذكرات التى اكتبها تحت عنوان « الناس والظروف » أن الأغنياء أكثر تعرضا للحالات النفسية من الفقراء .. لأن الفقير يشغله البحث عن لقمة العيش عن مواجهة أزماته النفسية .. أنه محتاج فى كل لحظة إلى عقله الواعى ليبحث به عن رزقه ، وهذه الحاجة تجعل العقل الواعى نشطا دائما ، وقويا ، وتجعل العقل الباطن الذى ترسب فيه العقد النفسية يذبل ويضعف ولا يقلق صاحبه .. فإذا ثار العقل الباطن للفقير ، ثار فجأة وانطلقت منه العقدة فى تصرف عنيف ، كأن يقتل ، أو ينتحر ، أو يصاب بالجنون ، دون أن تسبق هذه الانطلاقة معاناة مستمرة .. أما الغنى فإن الفراغ الذى يحيط به يجعل عقله الواعى يتكاسل ، وهذا التكاسل يترك للعقل الباطن مجالا للنشاط وللسيطرة .. وتبدأ المعاناة النفسية .. وكذلك المثقفون ، والجهلاء .. فالجاهل ليست له القدرة عادة على مخاطبة نفسه واستثارة العقل الباطن .. أنه لا يتعمد ذلك .. أما المثقف ، فإنه يستعمل ثقافته كأداة للبحث فى نفسه .. كفأس يحفر بها داخل نفسه .. وهو بذلك يستثير عقله الباطن ، ويعرض نفسه للأزمات النفسية ..

فإذا قرأ فى كتب علم النفس ازدادت حالته سوءا أو ازداد تعرضا للحالات النفسية .. لأن كتب الطب عموما تحتاج أثناء القراءة إلى إرادة قوية لتفصل بين عقلك الذى تفهم به ما تقرأه ، وإحساسك بما تقرأ .. إنك إذا قرأت كتابا علميا عن مرض السرطان تحس - إن لم تكن قوى الإرادة - بكل الأعراض التى تقرأ عنها تنتقل إلى جسدك .. وكذلك عندما تقرأ كتابا فى علم النفس ، تحس إنك مصاب بكل العقد التى يشرحها لك الكتاب .. وقد تكون مصابا بإحداها فعلا ، ولكن قراءتك عنها لا تؤدى إلى علاجها ، ولكن تؤدى إلى تضخمها .. والفرق بين الطبيب المتخصص والقارىء العادى عندما يقرآن كتابا فى علم النفس ، هو هذه الإرادة التى يفصل بها الطبيب بين عقله الذى يقرأ به ، وبين إحساسه بما يقرأ ..

هذه - على الأرجح — هى حالة الدكتور حسن .. رجل مثقف ترسبت فى عقله الباطن عقدة نفسية ، واستعمل ثقافته كفأس يحفر بها فى داخل نفسه ، ليصل إلى هذه العقدة ، ولكنه بدل أن يصل إليها استثارها ، وضخمها ، وزادها تعقيدا .

ومضت أربعة أيام ، ولم يتصل بى الدكتور حسن .. كنت انتظره فى عيادتى كل صباح وكل مساء ، وكنت انتظره فى البيت أيضا لعله يتحرج من أن يتصل بى فى العيادة فيتصل بى فى البيت.

ولكنه لم يتصل بى ..

وجاءت السيدة حرمه فى موعدها ..

إن هذه السيدة تثير احترامي إلى حد كبير ..

إنها سيدة كاملة .. كل شيء فيها يكاد يبلغ حد الكمال .. اختيارها لثوبها .. للساعة الرشيقة البسيطة التي تحلى بها معصمها .. طريقة إمساكها بحقيبتها وفردة القفاز .. خطوات مشيتها .. هدوء ابتسامتها .. اتزان كلماتها .. كل شيء فيها يدعو إلى الاحترام .. ولا اعتقد أني استطعت أن أخفي إعجابي بها .. نظراتي فضحتني .

وقالت قبل أن تجلس ، واللهفة تملأ وجهها :

— هل جاء إليك ؟

قلت في أسف :

— لا ..

قالت وهي تتنهد وتجلس على المقعد الكبير بجوار مكتبي :

— كنت أمنّي نفسي أن يجيء إليك دون أن يخبرني ..

قلت :

— لنصبر .. إن أول مميزات الطبيب النفسي الصبر الطويل ..

ومددت رأسي نحوها ، واستطردت :

— هل قلت له عن زيارتك لي ؟

قالت وهي تعبث بأصابعها في فردة القفاز :

— نعم .. وكل التفاصيل ..

قلت :

— وكيف استقبل النبأ ؟

قالت :

.. بالصمت .. كعادته ..

قلت :

— هل هو يصمت دائما ..

قالت :

— إنـه قليل الكـلام .. وإذا تكلـم فهـو لا يعبر أبـدا عن أحاسيسه.. عـن عواطفه .. إنه يقول رأيـه ، يعبر عن عقله .. ولا يعبر عن قلبه ، ولا عن إحساسه أبدا ..

قلت :

— كم مضى على زواجكما ؟

قالت :

— فى سبتمبر القادم .. تتم ثماني سنوات ..

قلت :

— وكان دائما صامتا..

قالت وهى تـرفع عينيها إلى وجهى كأنها تبحث عما وراء أسئلتى :

— دائما :

ثم عقدت حاجبيها كأنها تذكرت شيئا ، ثم قالت :

— اعتقد أنه ازداد صمتا بعد الزواج ..

قلت وأنا ابتسم لها حتى أخفف عنها وقع أسئلتى :

— هل عرفته طويلا قبل الزواج ؟

قالت :

— ثلاثة شهور فقط .. ولكنى قبل ذلك كنت التقى به فى بعض المجتمعات ..

قلت :

— أى نوع من الأزواج هو ؟

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تلومنى :

— مثالى .. كل شىء فى حياتنا يسير بنظام ودقة .

قلت :

— وعلاقتكما الخاصة ؟

ونظرت إلى فردة القفاز ، واحمر وجهها وقد فهمت سؤالى .. ثم قالت وهى تبتلع ريقها :

— طبيعية .

قلت بلا حرج من طول ما مارست هذه الأسئلة :

— ليس فيها أى شذوذ ؟

قالت وهى تنظر إلى بوز حذائها :

— لا ..

قلت :

— وهل العلاقة الخاصة تسير بدقة ونظام أيضا ؟

قالت وقد بدأ الضيق يبدو عليها :

— تقريبا ..

قلت :

— بمواعيد محددة ؟

قالت وهى تبتسم ابتسامة ضيقة تحاول أن تمسح بها ضيقها وحياءها :

— نعم .. تقريبا ..

قلت :

— هل يغار عليك ؟

واتسعت ابتسامتها قليلا ، وقالت :

— لا أدرى .. قلت لك أنه لا يعبر عن عواطفه .. كل ما اعلمه هو أنه يحبنى .. ولكنه لا يعبر عن حبه ، إلا بحرصه على راحتى ..

ثم رفعت رأسها واستطردت قائلة :

— هل تحللنى يا دكتور .. المفروض أن تحلل زوجى ..

قلت :

— إنى أحاول الآن أن أحللك .. ولكنى أحاول أن أجمع بعض المعلومات الدقيقة عنه .. واتعمد أن أسألك هذه الأسئلة الدقيقة ، ليثور عندما تنقلينها إليه .. ليتحرك .. ليأتى إلىّ ..

قالت :

— إنه لن يثور .. إنى أدرى به ..

قلت :

— سنرى ..

قالت وهى تجمع فردة القفاز فى يدها :

— هل يكفى هذا .. اليوم ..

قلت :

— يكفى ..

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تستمد منى الأمل :

— هل أنت واثق أنه سيأتى لو نقلت إليه ما دار بيننا ..

قلت :

— إن الطبيب النفسى يبحث عن إبرة فى قاع المحيط .. وهو لا يثق أبدا من أنه سيجدها مهما بلغ استعداده العلمى

ومهما بلغت دقة الأدوات التى يستعملها فى بحثه .. إن نتيجة البحث دائما فى علم الغيب ..

هزت رأسها فى يأس كأنها تلوم نفسها لأنها أتت إلىّ ، وهمت بالانصراف .. واستوقفتها قائلا :

— سؤال آخر لو سمحت .. متى بدأ الدكتور حسن يقرأ فى كتب علم النفس ..

ونظرت إلىّ كأنها لا تجد معنى لسؤالى ، ثم قالت بلا مبالاة :

— طول عمره يقرأ علم النفس ..

قلت:

— ألم تلاحظى فترة معينة بالذات ، بدأ فيها يكثر من شراء كتب علم النفس .. وقراءتها ..

قالت بعد تردد :

— ربما .. منذ أربع سنوات .. اذكر ذلك لأن المساحة المخصصة فى مكتبته لكتب علم النفس ضاقت .. واضطررنا إلى شراء مكتبة صغيرة أخرى ..

قلت :

— هل كان ذلك بعد أن أصيب بالشلل ..

قالت :

— لا .. لقد انتابته نوبة الشلل الأولى منذ ثلاث سنوات ..

قلت :

— شكرا ..

قالت وهى تقوم واقفة :

— هل أعود مرة أخرى ؟

قلت :

— إذا لم تسمعى إن الدكتور حسن جاء لزيارتى .. عودى إلىّ بعد أسبوع ..

وحددت لها موعدا جديدا بعد أسبوع..

وخرجت ..

السيدة الكاملة ..

●●●

ومضى اليوم التالى ، واليوم الذى بعده ، ولم يتصل بى الدكتور حسن .. وبدأت أشعر أن بينى وبينه معركة .. معركة إرادة؟.. إرادته وإرادتى .. هو يحاول ألا يأتى إلىّ .. وأنا أحاول أن أجذبه إلىّ .. وكانت تمر بى فترات أتمنى خلالها أن أراه ولو من بعيد .. أن التقى به فى أحد المجتمعات .. أن أراه والتقى به فى صورته الجديدة التى رسمتها لى أزمته النفسية .. ولكنى أيضا كنت أقاوم رغبتى فى أن أراه قبل أن يأتى إلىّ.. قبل أن يستسلم لى بإرادته .. كنت أخشى إن رآنى أو التقى بى ، أن يتزود بقوة جديدة يضيفها إلى إرادته .. أن تقلل رؤيته لى من رهبتى وخطورتى أمامه كطبيب يعلم عنه أشياء لا يجب أن يعلمها عنه أحد فتضعف بذلك المعركة بينى وبينه .

ثم ..

أخيرا ..

بعد خمسة أيام طوال ..

دق جرس التليفون فى بيتى ، وجاء السفرجى يعلن

أمامى اسم الدكتور حسن عزمى ..

وأسرعت إلى التليفون ، وسمعت صوته بطيئا مؤكدا كأنه يقرأ من ورقة كتب فيها كلماته قبل أن يقولها :

— آسف لإزعاجك يا دكتور .. هل أستطيع أن أراك ؟

قلت بلا لهفة :

— طبعا .. بكل سرور ..

قال :

— ليس فى العيادة .. إنها مسألة خاصة كما تعلم ..

قلت :

— لا مانع .. متى ؟

قال وصوته البطىء الواثق يملأ أذنى :

— إنى أعلم أنك تبدأ عيادتك الساعة السادسة .. هل أستطيع أن ألقاك اليوم فى الساعة الرابعة ..

قلت وأنا ابتسم لطريقة إلقائه لكلماته :

— أين ؟

قال بسرعة كأنه أعد الجواب على كل سؤال :

— فى نادى الجزيرة .. فى الليدو .. نتناول قدحا من الشاى !

قلت :

— اتفقنا يا دكتور ..

قال :

— شكرا يا دكتور ..

وألقى سماعة التليفون بسرعة بعد آخر مقطع من آخر كلمة ، كأن الورقة التى يقرأ فيها قد انتهت ..

وانتهيت من تناول طعام الغداء ، وأخذت أراجع فى ذهنى كل معلومـاتى عن الدكتـور حسن .. كل ما سمعتـه عنه من زوجته .. السيـدة الكاملة .. وكل مـا سمعته وما عـرفته من الآخرين .

ثم ذهبت إلى نادى الجزيرة ..

كانـت السـاعـة الرابعة وخمس دقـائق عندمـا دخلت إلى «الليدو » أو الشرفة الممتدة أمام حمام السباحة .. ورأيته من بعيـد جالسـا إلى إحدى الموائد .. وقـام يستقبلنى .. عندمـا اقتربت منـه .. طـويـلا .. رفيعا .. نحيل الـوجـه .. ونظـارة سميكـة تقف فـوق عينيـه كأنها تحرسهما ، وتحميهما من التراب .. وتفـاحـة آدم تبرز فى أناقـة من تحت جلـد رقبتـه الطـويلة .. وكل شىء فيـه مـرتب ، مهندم ، نظيف.. وعطـر «مستاش » يحيط به .

وجلس بجانبى وهو ينظر فى ساعتـه ، كأنه يلومنى برقة على تأخيرى ، ثم صفق بيديه فى هـدوء ، يستدعى الجرسون ليحمل لنا الشاى .

وظل صامتا ..

قلت :

— هل تأخرت ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة مهذبة رقيقة :

— لا .. خمس دقائق فقط !

ثم عاد إلى الصمت كأنه فى انتظار حضور الشاى ..

ولم أحاول أن أخرجه عن صمته .. بقيت صامتا بجانبه أدقق فى وجهـه .. إن وجهـه مريح .. مـريح إلى حـد كبير ..

وليس فيه أية حـركة عصبية .. عيناه ثابتتـان .. أصابع يده ثابتة .. لا شيء يبدو عليه يـدل على أزمته النفسية .. بل إنه يبدو أمـامى كأفضل رجل يصلح زوجـا لزوجتـه .. للسيدة الكاملة .

وجـاء الجرسـون يحمل إلينـا الشـاى ، ولاحظت ، والجرسـون يضع على المائدة معدات الشـاى ، لفتة سريعـة من عيني الـدكتـور حسن .. لفتـة تحمل نظـرة لها بـريق ، انطلقتْ من تحت نظارته السميكة .. أعقبها بأن رفع أصابعه وتحسس أنفه .

والتفت إلى حيث وجه الدكتور حسن نظـرته ، فرأيت فتاة صبية قـد لا تتجاوز الثالثـة عشرة من عمرهـا ، تسير نحو حمام السباحة مرتدية بنطلونا قصيرا .

ولا أدرى هل تنبه الدكتور حسن إلى أنى لاحظت التفاتته أم لا.. ولكنـه عاد بعـد قليل والتفت بنفس النظـرة فى اتجاه آخر .. رفع أصابعه وتحسس أنفـه أيضا .. وعندما نظرت فى اتجاه نظـرتـه وجـدته قـد نظـر إلى رجل عجـوز جـالس فى الشمس يقرأ جريدة .

وقد لا يكون فيما لاحظته شيء ..

وقـد يكـون الدكتـور حسن قـد حـاول أن يخدعنى عن نظـرته الأولى إلى الفتـاة الصغيرة ، فنظـر بعدهـا إلى الشيخ العجوز .

إننا كلنـا نفعل نفس الشيء ، عندمـا نشعر أن غريبـا قد ضبطنـا ونحن ننظر إلى فتـاة جميلـة ، فنحـول نظرتنـا إلى شيء آخر ، وغالبا ما نحولها إلى أول رجل تصادفه عيوننا ،

حتى نخدع هذا الغريب ، وحتى نقنعه أننا لسنا من الصنف الذى يتبع النساء ..

على كل حال .. لو كان الدكتور حسن مريضا نفسيا ، فلا بد أنه أمكر وأخبث المرضى النفسانيين ، وأمهرهم فى إخفاء مرضه وأزمته .

وصب الدكتور حسن الشاى فى رشاقة ، ثم استراح فى مقعده ورشف من فنجانه ، وقال كأنه حدد ساعة الصفر لبدء موضوعنا:

— لقد قالت لى زوجتى أنها ذهبت إليك فى العيادة ..

ولم أتظاهر بالدهشة لأنكر أنى أنا الذى أوصيتها بأن تقول له، ولكنى قلت له :

— هذا صحيح ..

قال :

— أرجو ألا تصدق ما قالته لك عنى .. إنى أصبت فعلا بنوبات شلل مؤقت ، ولكن أحدا لم يقل أنه نتيجة أزمة نفسية .. ولكنه ، كما أعلم ، وكما قال الأطباء ، نتيجة إرهاق.. وأنت تعلم مدى المسئوليات التى احملها وترهقنى ..

قلت :

— إنى أتصور كل من يشتغل بالمسائل المالية ، إنسانا مرهقا..

قال :

— الواقع انى تساءلت كثيرا عن ا لسبب الذى دفع زوجتى إلى الذهاب إليك لتقول لك هذا الكلام .. ثم بدأت أشك فى أن تكون هى المصابة بحالة نفسية صورت لها هذه الأوهام ..

قلت فى بساطة :

— هذا أمر سهل يمكن اكتشافه فى جلسة أو جلستين ..

قال دون أن يحتد :

— لا .. لا أعتقد أنها فى حاجة إلى طبيب .. الواقع أنى مقتنع بأن أى انسان مثقف يستطيع أن يعالج نفسه من أزمته .. وزوجتى إنسانة مثقفة .. كل ما هنالك أنها محتاجة لوقت حتى تنتبه إلى تصرفاتها فتعالجها .. أليس كذلك ؟

قلت فى هدوء :

— لا .. ليس كذلك ..

قال فى تعجب مكبوت كأنه يخشى أن يطلق تعجبه :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— اعنى أن المريض النفسانى لايستطيع أن يعالج نفسه.

قال وحاجباه يرتفعان فوق نظارته :

— لماذا .. إن علم النفس قائم على أن يعالج المريض نفسه بنفسه ..

قلت :

— إن صائد اللؤلؤ يصطاد اللؤلؤ بنفسه .. ولكنه لا يستطيع أن يغوص إلى قاع المحيط إلا إذا استعان بحجر ثقيل يشده إلى القاع حيث يجد اللؤلؤ .. وبغير هذا الحجر لا يستطيع الصائد أن يصل إلى القاع .. طبقا لنظرية الطفو التى وضعها أرشميدس .. وكذلك المريض النفسانى .. إنه فى حاجة إلى أن يصل إلى قاع نفسه ليكشف عقدته ولن

يصل إلى قاعه النفسى إلا إذا استعان بحجر ثقيل .. هذا الحجر الثقيل هو الطبيب المتخصص .

وسكت الدكتور حسن كأنه يفكر فى كلامى .. وبدا لحظة كأنه مقتنع به .. ولكنه عاد وابتسم ابتسامة مغرورة ، وقال فى هدوء .. وكلماته البطيئة تصل إلى أذنى كرذاذ المطر :

— لست مقتنعا .. انك تستطيع أن تغوص فى نفسك مستعينا بكتاب فى علم النفس .. وبثقافتك .. بدل أن تستعين بطبيب .. كل ما أرجوه عندما تأتى إليك زوجتى أن تقنعها بأنها ليست فى حاجة إلى طبيب .

قلت :

— إنى لا أستطيع أن أتخلى عن مسئوليتى نحو كل من يلجأ إلىّ ..

قال وهو ينظر إلىّ :

— كان يجب أن أقدّر أنك طبيب .. وأن هذه مهنتك ..

ونظرت إليه فى دهشة .. إنه يهيننى ..

واستطرد بسرعة فى كلمات أسرع مما تعودت منه :

— أنا آسف يا دكتور .. آسف فعلا .. لم أكن أقصد أى شىء ..

وكان صادقا فى أسفه .

وقلت وأنا ابتسم له لأريحه :

— إنك على حق .. إنى أدافع عن مهنتى ..

ووضع الدكتور حسن فنجان الشاى على المائدة ، وانتصب واقفا ، وقال وهو يمد يده لمصافحتى :

— آسف .. يجب أن أكون فى مكتبى الساعة الخامسة..

قلت وأنا أقف لأصافح يده الممدودة :

— شكرا لهذا اللقاء .. أرجو أن نلتقى مرة ثانية ..

وضغطت على كلماتى ليفهم ما أقصده ..

ولم يرد ..

وابتعد وهو يجر وراءه عطره ..

وعدت إلى مقعدى ، أراجع كل كلمة سمعتها وأتساءل ..

أيهما الحالة التى تحتاج إلى علاج ؟

هل هى حالة الدكتور حسن ..

أم حالة حرم الدكتور حسن ..؟!

●●●

مرت ثلاثة أسابيع ولم يتصل بى الدكتور حسن ..

ولا حرم الدكتور حسن .. لم تأت فى الموعد الذى سبق أن حددته لها ..

وطوال هذه الأسابيع الثلاثة وأنا فى حيرة .. لم أكن حائرا فى تحليل حالة الدكتور حسن .. بل كنت حائرا فى اكتشاف من منهما المريض .. الدكتور حسن ، أم حرمه .

لقد قال لى الدكتور حسن إن حرمه هى المريضة ..

وقالت لى حرم الدكتور حسن إن زوجها هو المريض ..

وقد يكون الدكتور حسن صادقا .. قد تكون حرمه هى المريضة .. هى التى تعانى حالة نفسية وفى حاجة إلى طبيب نفسانى . وربما لم تستطع أن تواجه هذه الحقيقة ، وفى الوقت نفسه لم تستطع أن تقاومها .. فجاءت إلىّ بحجة أن زوجها مريض، وهى فى الواقع تبحث عن علاج لنفسها .. وربما تمكنت منها هذه الحجة — حجة أن زوجها مريض —

حتى اقتنعت بها فعلا.. أصبحت حقيقة تسيطر على عقلها .. وكثير من المرضى النفسانيين يلجأون إلى هذه الطرق الملتوية لمواجهة الطبيب النفسانى .

وأخذت أدرس التصرفات الظاهرية لحرم الدكتور حسن فى المرتين اللتين رأيتها فيهما .. لا شىء فى تصرفاتها يدل على حالة نفسية شاذة .. عيناها ثابتتان .. شفتاها ثابتتان .. حديثها متزن لا تناقض فيه .. حركاتها محترمة رشيقة تبلغ حد الكمال ..

ورغم ذلك فالمظهر الخارجى لا يدل على شىء .. إن كثيرا من الحالات تتميز بمظهر خارجى ثابت لا يدل على الاهتزاز الداخلى الذى تعانيه .. ثم إن هذا المظهر الخارجى الثابت قد يكون مجرد فترات استراحة بين أزمات نفسية عنيفة .

ولكن ..

لعل الدكتور حسن هو المريض كما قالت لى زوجته ..

وعدت أدرس المظهر الخارجى للدكتور حسن .. لا شىء أيضا يدل على اهتزازات نفسية إلا هذه النظرة الغريبة التى ضبطته يوجهها إلى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها عارية الساقين ، أعقبها بأن تحسس أنفه بأصابعه .. وقد تكون هذه النظرة فيها ما يفضح حالته النفسية ، كما أن تحسس الأنف له تفسير جنسى فى نظرية فرويد .. ولكن من المحتمل أيضا أن تكون هذه النظرة مجرد نظرة ألقى بها بلا تعمد .. ثم إن نظريات فرويد ليست دائما صحيحة على إطلاقها .

وفيما عدا ذلك فهو إنسان كامل . أما حالات الشلل

المؤقت التى تصيبه ، والتى اعترف لى بها ، فقد تكون نتيجة حالة نفسية فعلا ، ولكنها أيضا قد تكون نتيجة إرهاق شديد ..

وأنا حائر ..

ومرت الثلاثة أسابيع وأنا لازلت حائرا .. وفى حيرتى أتلهف على أن يزورنى الدكتور حسن أو حرمه لأقف على سرهما .. بل إنى بدأت أسعى إليهما .. ذهبت ثلاث مرات إلى نادى الجزيرة لعلى ألتقى هناك بالدكتور حسن .. ولم ألتق به إلا مرة واحدة .. من بعيد .. وخيل إلىّ أنه ابتسم لى ابتسامة صغيرة فيها كثير من السخرية والاستهتار .. كأنه يهزأ بى ، ثم أدار ظهره إلى الناحية التى أقف فيها .. واختفى ..

وذات مساء ..

دخل مساعدى ، بعد أن انتهيت من بحث آخر حالة عرضت علىّ فى العيادة ، وقال لى وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :

— حرم الدكتور حسن عزمى تنتظر .. وتصر على أن تراك !

وتوقفت لحظة ..لقد جاءت بلا موعد كما جاءت فى المرة الأولى.

وابتسمت فى راحة .. راحة من لهفتى ..

وقلت لمساعدى كأنى هائم فى عواطفى :

— دعها تدخل ..ووقفت انظر إلى الباب وأنا استعين بكل إرادتى لأخفى عنها حيرتى ولهفتى ..

ودخلت ..

إن ملامح جديدة تكسو وجهها . ومظهر السيدة الكاملة التى تثير احترامى وإعجابى قد تغير .. عيناها مضطربتان .. شفتاها ذابلتان .. وجهها الخالى من الاصباغ يبدو فى لون الليمون .. وحركتها الرشيقة المتزنة تبدو مرتعشة كأنها لم تعد تستطيع أن تسيطر عليها ..

وصافحتنى بلمسة سريعة من يدها ، ثم جلست - دون أن ادعوها - على المقعد الكبير الموضوع بجانب مكتبى ، وقالت وهى تتنفس بسرعة :

— يبدو أنى أخطأت فى الالتجاء إليك .. من يومها وحالة زوجى تسوء يوما عن يوم .. وقد ترددت كثيرا قبل أن أعود إليك .. ولكنى لم أجد طريقا آخر .. لقد وعدتنى أن تعالجه إذا ساءت حالته .. وقد ساءت .. ولكنه لا يزال يرفض أن يأتى إليك .. فتصرف .. حقق وعدك لى .. إنها مسئوليتك .. أنت الذى أمرتنى بأن أبلغه بزيارتى لك ..

وقلت فى هدوء وأنا ابتسم لعلها تهدأ معى :

— لنبدأ من الأول .. ماذا حدث ؟

قالت فى عصبية :

— حدث الكثير .. و ..

وقبل أن تستطرد ، فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجاير مذهبة ، وأشعلت لنفسها سيجارة شدت منها نفسا عميقا كأنها تشد كل عمرها ، ثم قالت وسحب الدخان تنطلق من فمها :

— لقد جن .. أو لعله يحاول أن يجننى !

قلت وأنا أنظر فى وجهها كأنى أحاول أن أنفذ إلى عقلها :

— كيف ؟

قالت وهى ترتمى بظهرها على مسند المقعد ، وسيجارتها معلقة أمام عينيها :

— لقد كان طبيعيا .. إلى أن زرتك فى المرة الثانية .. أو على الأقل لم تزدد حالته سوءا .. وبعد أن علم بهذه الزيارة.. ازداد صمتا ، حتى بدا كأنه يعيش وحده .. كأنى لست معه .. وزاد عدد الساعات التى يقرأ فيها .. وأصبح يدخل غرفة مكتبه ، ويغلق بابها عليه بالمفتاح ، على غير عادته.. ويختفى فيها ساعات .. ثم عاد يوما من الخارج وقال لى فى كلمات قليلة أنه التقى بك ، وأنه استطاع أن يقنعك بأنه ليس فى حاجة إلى طبيب نفسانى .. ورغم إنى كنت جزعة من التغير الذى يطرأ عليه ، فإنى اطمأننت عندما علمت أنك اقتنعت بأنه ليس فى حاجة إليك .. ثم بعد ذلك لم يعد يجلس فى غرفة مكتبه طويلا ويغلق على نفسه الباب .. أصبح يجلس معى كثيرا .. كلما عاد من عمله جلس معى إلى أن يعود إلى عمله .. وقلت لنفسى « خير .. » وفى إحدى الأمسيات كنا جالسين معا فى حجرة ملحقة بحجرة النوم ، كل منا يقرأ فى كتاب.. وفجأة سمعته يصرخ فى وجهى :

— لماذا لا تردين علىّ ؟!

وذعرت لصرخته وقلت له فى دهشة :

— إنك لم تتكلم ..

قال وهو لا يزال محتدا :

— إنى أكلمك منذ عشر دقائق .. لقد كنت أحدثك عن

قطعة أرض أفكر فى شرائها !

قلت وأنا انظر فى وجهه :

— إنى لم أسمعك .. إنك لم تتكلم ..

وهدأ وابتسم لى فى حنان وقال وهو يربت على يدى :

— ربما كنت فى حاجة إلى علاج أذنيك .. سأتصل غدا بالدكتور عبد السلام البربرى ..

قلت وقد بدأت أثور :

— لا شىء فى أذنى .. إنك لم تتكلم .. إنى واثقة من أنك لم تتكلم ..

وابتسم ابتسامة لم استرح لها ، وقال :

— حاضر .. لم أتكلم .. سأقول كلامى مرة أخرى ..

وبدأ يحدثنى عن قطعة أرض ينوى شراءها .. ولكنه كان يتحدث بصوت عال .. عال جدا .. كأنى طرشاء .. فصرخت فيه:

— لماذا ترفع صوتك ؟

وقال فى هدوء :

— لتسمعينى :

قلت صارخة :

— إنى أستطيع أن أسمعك دون أن ترفع صوتك إلى هذا الحد .

قال وهو يعود ويربت على يدى .. ولأول مرة فى حياتى تقشعر يدى من يده :

— لا تغضبى .. لن اتكلم ..

وعاد يقرأ فى كتابه .. ولكنه بعد ذلك أصبح كلما كلمنى ،

يرفع صوته جدا .. فإذا ثرت فى وجهه سكت عن الكلام .. وظل على ذلك أياما طويلة .. يصر على أنى طرشاء .. ويصر على أن يرفع صوته إلى حد الصراخ كلما كلمنى .. حتى كدت أجنّ .. أصبحت أتخيل أن كل من يتحدث إلىّ يرفع صوته إلى هذا الحد .. فإذا حدثنى السفرجى .. صرخت فيه : لا ترفع صوتك .. إنى أستطيع أن أسمعك بلا صراخ .. وتبدو الدهشة فى عينى السفرجى والسائق .. وصديقاتى .. حتى ابنى الصغير أصبح يخيل إلىّ أنه يرفع صوته.. حتى بدأت اقتنع إنى طرشاء فعلا .. فذهبت إلى الدكتور عبدالسلام البربرى .. وكشف على أذنىّ .. أنهما سليمتان .. وحدثنى الدكتور عبد السلام .. وسألته : هل ترفع صوتك وأنت تحدثنى .. قال : « لا .. » قلت : « إنى أسمعك جيدا .. » قال: « إن حاسة السمع عندك قوية ، أقوى من الأذن العادية .. » وأجرى على أذنى عدة تجارب تبين منها فعلا أن سمعى سليم قوى .. وعدت إلى زوجى لأبلغه ما قال لى الدكتور ، فرد علىّ بصوت عال .. عال جدا .. وصرخت وأنا أكاد أجن :

— لماذا تتحدث بصوت عال .. قلت لك إن الدكتور أكد أن أذنى سليمتان ؟

وقال لى وهو يبتسم ابتسامة لزجة ونظرات خبيثة فى عينيه :

— ولكنى أتكلم بصوت عادى .. صوت خفيض !

وتنبهت إلى الحقيقة .. إنه يحاول أن يجننى .. لاشك أنه يحاول أن يجننى .. ولذلك جئت إليك ، لتحاول أن تنقذنى ، إذا لم تستطع أن تنقذه ..

وسكتت ..

ومدت يدا مرتعشة ، وأخرجت سيجارة ثانية من العلبة الذهبية.. وارتعش عود الثقاب بين أصابعها ، فألقى على وجهها ظلالا متحركة كأنها خيالاتها تنطلق من صدرها ..

وأنا حائر أمامها ..

أحاول جهدى أن أخفى حيرتى ..

هل أصدقها ؟

لو صدقتها .. فالدكتور حسن هو أخبث أنواع المرضى النفسانيين .. إنه مجنون يعلم بجنونه ويحاول أن يدافع عنه .. ويلجأ إلى أعقد الأساليب لحماية هذا الجنون .. حمايته من أن يشفى منه .. وإذا لم أصدقها فهى نفسها التى تحاول أن تحمى جنونها .

وقررت أن أصدقها ..

إن نقطة البداية عند كل طبيب نفسانى هى أن يصدق مريضه..

وقلت وأنا ألمحها تميل برأسها وتسندها فوق كفها ، كأنها لم تعد تستطيع أن تحملها ، وسيجارتها ترتعش بين أصابعها :

— هذا محتمل .. ربما أراد أن ينفى أنه مريض نفسانيا ، بأن يقنعك أنك أنت المريضة .

قالت فى حدة :

— وما العمل .. كيف تنقذه ، وتنقذنى منه ..

قلت فى هدوء :

— حدثينى عن نفسك ..

واتسعت عيناهـا كأنها ذعرت .. وقـالت وهى تخبط على حافة المكتب بكفها ، وصوتها أكثر حدة :

— أتحاول أن تحللنى ؟

قلت وأنا محتفظ بهدوئى :

لا .. إنى أحاول أن أحلل زوجك من خلالك ..

وتعقد حاجبهـا ،. وضاقت عيناها ، ومـدت عنقها نحوى وهى تنظر إلىّ نظـرة فاحصـة وقالت فى صـوت يرتعش من الغضب :

— قل لى .. هل تشـك أنت أيضـا فى أنى قـد أكـون مجنونة ..

قلت :

— لا .. ورغم ذلك ، ولكى أكـون صـادقـا معك ، فأنـا لا أكوّن رأيـا مقدما ، بل أصـدق كل كلمة تقـولينها .. ليس من حقى أن أشك فى كلامك .. إلا إذا بدأت أنت تشكين فيه .

وعادت تميل بجسدها على ظهر المقعد ، وصمتت ..

صمتت طويلا ..

وأنا أحاول أن أدرسها أكثر . أنها تخاف من أن أحللها .. وهى تشك فى أنى قـد اعتبرها مجنـونة .. ومجرد شكهـا قد يكون دليلا على أنها مريضـة فعلا ، ودليلا على أنها تخشى أن تنكشف خطتهـا.. وقـد يكـون أيضـا مجرد شك طبيعى نتيجة للحالة العصبية التى أوصلها إليها زوجها ..

وقالت فجأة وهى تنظر أمامها نظرات ساهمة :

— ماذا تريد أن تعرف عنى ؟

قلت وأنا ابتسم شاكرا لها استجابتها لى :

— أى شىء .. أو كل شىء ! ..

قالت وهى لا تنظر إلىّ :

— من أين تريدنى أن أبدأ ؟

قلت :

— كما تشائين ..

وانحنت إلى الإمـــام لتطفىء سيجـارتها فى المنفضـــة . . ضغطتها بعنف كـأنها تطفىء نارا فى صدرهـا .. كأنها تقتل حيـوانـا صغيرا يجرى تحت ثيـــابها .. ثم ارتمت على ظهـر المقعـد .. وتنهدت كأنها تشـد ذكـريـاتها من بئر عميقـة .. وقالت :

— أمى مـــاتت وأنا فى العاشرة مـن عمرى .. كنت أيـامها مازال فى المدرسة الإنجليزية .. وجاءت عمتى لتعيش معنا .. بـدلا من أمى.. وكـان هنـاك فـارق كبير بين أمى وعمتى .. وأيضـــا بين عمتى وأبـى .. كـــانت أمى وأبـى متحـــررين مثقفين.. يحبان القـراءة ، والموسيقى ، ويتناقشان طـويلا فى القصص التى يقـــرآنها .. وقـــد ربيـانى لأكـــون مثلهما .. متحررة .. مثقفة .. كنت أرقص الباليـه وأنا فى السادسة من عمـرى .. وعندمـا أصبحت فى الثـامنـة أجدت العـزف على البيانو .. ولم يكن أحدهما ينهـرنى .. كلاهما يدللنى .. ولكن عمتى كانت شيئـا آخر .. إنها أرملة محافظة تؤمـن بالتربية القديمـة .. لقد أطالت ثيـابى إلى ما تحت ركبتى منـذ الشـهر الأول الـذى تـولـت فيـه تـربيتى .. وحـرمتنـى من ركـوب البسكليت .. وأصبح يومى كلـه عبارة عن مجموعـة نصائح

لا تفعلى ذلك .. عيب .. لا تفعلى .. هـــذا خطأ .. لا تفعلى .. هـذه فضيحة .. لا تفعلى .. و .. و .. ولم احتمـل طويـلا .. بـدأت اتحدى عمتى .. وأصبحت اتحداها علنـا .. وانتصر لى والـدى .. وقف بجـانبى .. وهـزمت عمتى.. وعـدت حـرة .. اذهب إلى المدرسـة .. وارقص البـاليـه .. وألعب التنس .. واذهب إلى ا لحفـلات .. أحيانـا اذهب وحدى .. عشت حيـاة سعيدة .. إلى أن تزوجت ..

وسكتت كأنها انتهت من قصتها ..

وقلت كأننا لا زلنا فى البداية :

— ألم يكن فى حياتك رجل ، قبل الزواج !

قالت فى صراحة :

— كثيرون .. أصـدقاء كثيرون .. ولكننى أحببت مـرة .. مرة واحدة ..

قلت :

هل دام هذا الحب طويلا ؟

قالت وهى تتنهد :

— ثلاث سنوات .. لقد كنا مخطوبين تقريبا ..

قلت كأنى ألاحقها : .

— ولماذا لم تتزوجا ؟

قالت وهى تبتسم ابتسـامة صغيرة كأنها تترحم بها على حبها :

— انتهى الحب ..

قلت بسرعة :

— كيف انتهى ؟

ونظرت إلىّ فى دهشة كأنها تتعجب لملاحقتى لها بالأسئلة ثم أرخت عينيها وقالت :

— لا أدرى كيف انتهى .. ربما لأنى أحسست يوما أنه أهان كرامتى .. جرح كبريائى ..

قلت :

— وهل كان زوجك يعلم بهذا الحب قبل أن يطلبك للزواج ؟

قالت فى بساطة :

— طبعا .. كل الناس كانوا يعرفون قصة حبى .. ثم أنى رويتها لزوجى بتفاصيلها قبل أن نتزوج .

قلت :

— كل التفاصيل ؟

قالت وهى تنظر إلى بوز حذائها :

— تقريبا .

قلت :

— ألا تعتقدين أن لهذه القصة أثرا فى حياتكما الزوجية ؟

قالت فى تأكيد :

— إن الدكتور حسن رجل مثقف متحرر .. إنه يؤمن بحق البنت فى الحرية .. وفى الحب .. ولا يمكن أن يؤثر فيه ماضى فتاة.. إنه ليس فلاحا متزمتا .. لقد عاش فى أوروبا .

قلت وأنا أفحص وجهها :

— هل أحببت زوجك قبل الزواج ..

قالت ورموشها ترتعش فوق عينيها :

— لا .. ولكن كان يمكن أن أحبه .. لقد كنت معجبة به

وبشخصيته إلى حد أن اقترب إعجابى من الحب .. ولكن طبيعته الصامتة وقفت كالحائط بينى وبينه .. وقفت بينى وبين أن أحبه .

قلت :

— هل يعلم زوجك أنك لا تحبينه ؟قالت وقد بدأت تضيق بأسئلتى :

— لا أدرى .. إننا لم نناقش هذا الموضوع .. وهو كما قلت لك ، لا يفصح عن نفسه أبدا .. ولكن الحب ليس كل شىء فى الحياة الزوجية .. هناك التفاهم ، والاحترام المتبادل، والذوق المشترك .. وأنا متفاهمة معه .. واحترمه .. واتفق معه فى ذوقه .

قلت :

— وهل يحبك هو ؟

قالت بلا تردد :

— نعم ..

قلت :

— كيف تأكدت أنه يحبك ، وأنت تقولين إنه لايفصح عن عواطفه..

قالت :

— إن المرأة تستطيع دائما أن تعرف الرجل الذى يحبها، دون حاجة إلى إفصاح .

قلت :

— ألم تختلفا أبدا .. ألم تتشاجرا ؟

وسكتت قليلا تحاول أن تتذكر ، ثم قالت وهى تمط

شفتيها باحتقار :

— مرة .. كنت أريده أن يستغنى عن سائقه .. ورفض ..

قلت :

— لماذا أردت أن يستغنى عن سائقه الخاص ؟

قالت ف تأفف :

— لأنه إنسان غير مريح .. نظراته وقحة .. تقززنى .. وكان يخيل إلىّ أحيانا أنه لا يحترمنى .. بل لا يحترم زوجى أيضا .

قلت :

— ولماذا رفض أن يستغنى عنه ؟

قالت وهى تزداد امتعاضا :

— بحجة أنه بقى معه طويلا .. أكثر من عشر سنوات ..

قلت :

— وكيف احتملت بقاء هذا السائق ؟

قالت :

— الحقيقة أنى لا احتمله إلى الآن .. ولكنى عودت نفسى عليه.. اعتبرته العيب الوحيد ف زوجى .. ويخيل إلىّ أحيانا أنه يعرف عن زوجى أكثر مما أعرف أنا .. كأن هناك سرا بينهما .. وهو يصحبه دائما .. إلى الإسكندرية .. وأخذه مرة معه إلى أوروبا.

قلت :

— أى سر يمكن أن يكون بين زوجك وسائق السيارة ؟

قالت :

— لا أدرى .. إنى لا أحب أن أجرى وراء الأسرار ..

قلت :

— حتى هذا السر ؟

قالت :

— الحقيقة أني لم أصدق أن يكون بين زوجي وسائقه سر..

قلت :

— ألم تتساءلي لماذا يغضبك من أجل سائقه ؟

قالت وهي تتنفس أنفاس الضيق :

— إنك تعلق أهمية كبيرة على هذا الموضوع .. إن شجارنا حول هذا الموضوع لم يستغرق سوى دقائق .. كلمة ورد غطاها .. وقد تأثرت يومها .. ثم انتهى كل شيء في اليوم التالي ..

قلت وأنا ابتسم معتذرا لها عن إلحاحي :

— آسف .. ألم تختلفا حول موضوع آخر ..

وقالت بسرعة كأنها تريد أن تنتهي :

— لا ..

وقبل أن أتكلم استطردت كأنها تذكرت شيئا آخر :

— نعم .. لقد تشاجرنا مرة أخرى .. خناقة كبيرة .. كانت إحدى قريباتي .. ابنة عمتي قد اضطرت للسفر فجأة ، فأرسلت ابنتها لتقضي الليلة عندنا .. واذكر يومها أنه قال إنه لا يوافق أن تترك أم ابنتها وتسافر .. وأصر على تذهب الفتاة وتبيت عند عمتي في بيت أبي .. ولكني لم أقتنع بحجته .. وصممت أن تبقى الفتاة .. فما كان منه إلا أن خرج وقضى ليلته في فندق شبرد .

وقلت فى اهتمام :

— كم كان عمر الفتاة ؟

وقالت بلا اهتمام :

— كانت فى الثالثة عشرة .. أو الرابعة عشرة من عمرها .

قلت بمـزيـد من الاهتمام وأنـا اضغط على القلـم الـذى أسجل به حديثها فى مذكرتى الطبية :

— ومتى حدث هذا ؟

قالت فى بساطة :

— منذ ثلاث سنوات .. تقريبا !

قلت كأنى اكتشفت شيئا :

— لقد قلت لى فى زيارتك السابقـة إن نوبات الشلل بدأت تصيبه منذ أربع سنوات .

قالت فى دهشة :

— نعم .. ولكن مـا العـلاقـة بين نوبـات الشلل وقصـة خلافنا حول هذه الفتاة ؟

قلت :

— لا أدرى بعد .. صدقينى أنى لا أدرى ..

ونظرت إلىّ كأنها لا تصدقنى .. ثم قالت :

— ألا يكفى هذا .. اليوم ؟

قلت وأنا ابتسم لها ابتسامة كبيرة :

— لقد آخرتنى لأول مرة عن مـوعد عشائى ، فمن حقى أن اسألك سـؤالا آخر .. اعتبريـه عتابـا لك لأصرارك على أن تأتى إلى العيادة بلا موعد .

وابتسمت قائلة :

— إنى مضطرة أن استسلم لك ..

قلت :

— إنى أريدك أن تتذكرى جيدا الأيام التى سبقت إصابة زوجك بنوبة الشلل الأولى ؟

قالت وهى تجهد ذاكرتها وتعصر جبينها بأصابعها :

— اذكر أنه كان فى الإسكندرية .. قضى هناك أربعة أيام أو خمسة .. ثم عاد .. عاد أكثر صمتا عن عادته .. وأكثر تجهما .. وقد تركته يومين وهو متجهم .. تبدو التعاسة على وجهه .. ثم سألته عن سبب تجهمه .. وأجابنى فى كلمات قصيرة بأن الحالة فى البورصة مرتبكة .. ولم اندهش فقد كنت اعلم أن السبب لا بد أن يكون متعلقا بعمله .. ومضى يومان آخران وهو لا يزال متجهما .. ثم أصيب بنوبة الشلل .

قلت :

— وهل كانت الحالة فى البورصة مرتبكة فعلا ؟

قالت :

— لا أدرى .. لم اهتم بالسؤال .

قلت :

— ومتى أصابته نوبة الشلل الثانية ؟

قالت :

— بعد عام ، أو عام وبضعة شهور ..

قلت :

— وماذا حدث قبل أن تصيبه ؟

قالت :

— لقد كان في الإسكندرية أيضا .. و ..

وتوقفت كأنها دهشت ، ثم قالت :

— غريبة .. إن النوبة الثالثة أصابته أيضا بعد أن عاد من الإسكندرية .. أليس هذا غريبا ؟!

قلت وأنا أطوى مذكراتي الطبية :

— فعلا .. غريبة ..

قالت :

— ماذا يعني هذا ؟

قلت :

— ألم تنتبهي من قبل إلى أن النوبة تصيبه دائما بعد عودته من الأسكندرية ؟

قالت :

— لا .. ولكن ماذا يعني هذا .. ربما كانت الرطوبة لا تناسب صحته !

قلت :

— لا أدري ولكني استبعد أن تكون الرطوبة هي السبب ؟

قالت وهي تلتقط حقيبتها :

— ولكن .. لابد أن يكون هناك تفسير ..

قلت :

— هذا ما نسعى إليه .. إننا لازلنا في البداية ..

قالت وهي تقوم واقفة :

— كيف نسعى إليه ؟

قلت :

— بالصبر .. لقد قلت لك إن الموهبة الرئيسية فى أطباء النفس هى الصبر .

ومددت يدى أصافحها وأنا انظر إليها وابتسامتى فى عينى .. أنها الآن سيدة كاملة .. عيناها ثابتتان .. شفتاها ثابتتان .. بشرتها مشدودة ملونة بدماء الصحة .. حركاتها رشيقة متزنة .. لقد عادت السيدة التى تثير احترامى وإعجابى .

وقالت وهى تصافحنى فى حرارة :

— هل أقول لزوجى أنى جئت لزيارتك ؟

قلت بسرعة وتأكيد :

— لا .. لا .. لا تقولى له شيئا .. أرجوك .

قالت وهى تبتسم ابتسامة كبيرة :

— أتدرى يا دكتور .. إنى الآن أحسن حالا .. لقد هدأت بعد أيام طويلة من العذاب .

قلت :

— أعرف هذا ..

قالت فى دهشة رقيقة :

— كيف عرفت ؟

قلت :

— إنك لم تدخنى ولا سيجارة بعد سيجارتك الثانية..

قالت :

— يظهر إنى كنت فى حاجة إلى تحليل نفسى ..

قلت :

— كلنا فى حاجة إلى تحليل نفسى ..

قالت وهى تضحك ضحكة صغيرة رنينها هادىء :

— حتى أنت ؟

قلت :

— إن نفوس الناس ، تشغلنى عن نفسى ..

قالت وهى تخطو نحو الباب :

— هل أعود إليك ؟

قلت :

— لحظة واحدة ..

وقلبت فى دفتر مواعيدى ثم قلت لها :

— بعد أسبوع .. الساعة السابعة مساء .. إذا شعرت بحاجتك إلىّ .. يجب أن تشعرى أولا بحاجتك إلىّ .. وإذا لم تشعرى بحاجتك إلىّ أتصلى بى فى التليفون .. فربما احتجت إليك أنا ..

قالت وابتسامتها المحترمة بين شفتيها :

— وإذا احتجت إليك قبل ذلك ؟

قلت ضاحكا :

— تعالى كعادتك ، بعد موعد انتهاء العيادة !

وفتحت لها الباب ..

وهمّت بالخروج .. ولكنها وقفت مترددة .. ثم التفتت إلىّ والاضطراب بدأ يمد بصماته إلى عينيها .. وقالت فى صوت متردد :

— قل لى يا دكتور .. هل كنت تحدثنى بصوت عال ؟

قلت :

— لا ..

قالت :

— لاتكذب علىّ ..

قلت :

— إنى لا أكذب عليك؟

قالت فى حيرة :

— لقد مرت لحظات خيل إلىّ فيها أنك كنت تحدثنى بصوت عال .

قلت وقد أحسست أنها سحبت منى هدوء عقلى :

— ثقى بى .. أنى لا أكذب عليك !

ونظرت إلىّ طويلا كأنها تبحث عن الحقيقة فى وجهى .. حقيقتها الضائعة منها ..

وخرجت ..

●●●

بعد يومين اتصل بى الدكتور حسين تليفونيا ، فى بيتى ، وقت الغداء ، وقال لى بصوته الهادىء البطىء :

— هل أستطيع أن أقابلك ؟

وقلت وأنا أتعمد أن أتكلم بلهجة رسمية جافة :

— أرجو أن تتصل بى فى العيادة حتى أحدد لك موعدا بعد مراجعة قائمة المواعيد ..

وصمت قليلا كأنه فوجىء بلهجتى الجدية ، ثم قال فى صوت متردد أكثر بطئا :

إنى أفضل أن أراك خارج العيادة فى نادى الجزيرة .. كالمرة السابقة ..

قلت محتفظا بلهجتى الجدية :

— أرجوك يا دكتور حسن .. الأفضل أن نتقابل فى

العيادة ، مادمت تلقانى بصفتى طبيبا !

قال :

— ولكنها مسألة ليست خاصة بى ..

قلت :

— ولو .. أفضل أن نبحثها فى العيـادة .. أنى هناك أكون أقدرمن الناحية النفسية على مزاولة مهنتى ..

قال وصوته يعبر عن ضيقه :

— ولكنى أريد أن ألقاك اليوم .. إنها حالة عاجلة ..

قلت :

— إنى أستطيع أن أحدد لك موعدا اليوم ..

فقال فى صوت خفيض كأنه يعلن استسلامه :

— متى ؟

قلت :

— فى الساعة الخامسة .. قبل موعد بدء العيادة ..

قال . كأنه يتنهد :

— شكرا ..

وألقى السماعة بسرعة ..

وقـد تعمدت أن يكـون لقـاؤنـا فى العيادة ، حتى اجعلـه يعترف بينه وبين نفسه بحـاجته إلىّ .. وحتى أحطم جزءا من غروره .. ثم إن المريض يكون عـادة أكثر استسلاما للطبيب داخل العيادة ، منه عندما يلقاه خارج العيادة ، إن شخصية الطبيب ـ كطبيب ـ تضعف خارج عيادته .

ورغم ذلك فعندما جـاء إلى العيادة ، جاء يحوطه غروره ، وثقتـه بنفسـه ، وابتسـامته الصغيرة تعلـو شفتيـه ، هـذه الابتسامة التى يبدو أنه يسخر بها منى.. ويتحدانى ..

لقد استطاع فى الفترة التى انقضت بعد حديثنا التليفونى أن يستعيد سيطرته على نفسه .. استطاع أن يؤهل نفسه لدخول العيادة وهو بكامل قواه .

وقال وهو يجلس على المقعد العريض ، ويضع ساقيه الطويلتين ساقا على ساق :

— إنها زوجتى .. لقد بدت منها تصرفات أزعجتنى .. وأرجح أن هذه التصرفات هى انعكاسات حالة نفسية تعانيها .. والواقع أنى فكرت فى أن أتولى علاجها بنفسى .. ولكنى قررت أن أستعين بك ..

قلت وأنا جامد الوجه :

— إنى فى الخدمة ..

قال وكأنه يحاول تحطيم كبريائى :

— لقد قررت أن استعين بك لتحمل عنى المسئولية .. إنها مسئولية يجب أن يحملها أخصائى معروف .

وأحسست بعينيه تبحثان فى وجهى كأنه يحاول أن يقرأ أفكارى ، وأنا محتفظ بجمود وجهى حتى لا يقرأ من خلاله شيئا ، وقلت :

— ما هو نوع التصرفات التى بدت منها ؟

قال :

— تصرفات عجيبة .. عندما أتكلم بصوتى العادى لا تسمعنى.. فإذا رفعت صوتى انزعجت .. وامرتنى أن أتكلم بصوت خفيض .. ثم أصبح يخيل إليها أن كل الناس يتحدثون بصوت عال .. وقد طلبت منها أن تذهب إلى طبيب مختص فى الأذن.. وذهبت فعلا إلى طبيب .. فوجد أذنيها

سليمتين .. ولكنها لا تزال تعتقد أن كل الناس يحدثونها بصوت عال .. إنها حالة نفسية بلا شك .

قلت :

— متى بدأت هذه الحالة ؟

قال :

— أخيرا .. منذ أسبوعين أو ثلاثة .. ولكنها منذ مدة طويلة وهى تعتقد أننى فى حاجة إلى طبيب نفسانى .. وكانت تلح علىّ دائما أن أعرض نفسى عليك .. ثم جاءت إليك لتعرض عليك حالتى.. واعتقد أنها كانت فى كل ذلك تعبر عن حاجة فى نفسها للذهاب إلى طبيب نفسانى .. حاجتها هى لا حاجتى أنا .. ثم بعد أن علمت أننى قابلتك وأنك اقتنعت بأنى لست فى حاجة لأعرض نفسى عليك .. بدأت حاجتها إلى الطبيب النفسانى تنعكس فى تصرفات أخرى .. وفى ظواهر شاذة ..

قلت فى برود :

— هذا محتمل ..

قال فى تحد :

— هذا أكثر من محتمل .. إنه واقع !

قلت :

— التحليل النفسى يمكن أن يكون واقعا .. إنه استنتاج ، أما « الواقع » فهو النتيجة التى ينتهى إليها التحليل النفسى .. والتى تثبت صحة التحليل أو عدم صحته .

وسكت كأنه تلقى درسا ، لم يكن يحب أن يتلقاه منى .

وتركته يسكت .. لم أحاول أن أجره إلى الكلام .

وبعد قليل رفع رأسه إلىّ ، وقال :

— ماذا تقترح ؟

قلت فى هدوء :

— اقترح أن تحدثنى عنها ..

قال وهو يفحصنى بعينين ملؤهما الشك :

— أتريد أن أحدثك عنها ، أم أحدثك عن نفسى ؟

قلت :

— إن حديثك عن نفسك ، لابد أن يكون حديثا عنها ..

ونظر إلىّ وابتسامته الساخرة تتسع فوق شفتيه ، وقال :

— هل تريد أن استلقى على الأريكة ، كما يفعل بقية مرضاك ؟

قلت فى هدوء :

— ليس هذا مهما ..

قال يتحدانى :

— لا .. سأستلقى على الأريكة .. أنها تساعد على استدراج الإنسان فى الكلام .. أليس كذلك ؟

ثم قام من تلقاء نفسه وألقى بنفسه على الأريكة ..وكان هذا التصرف يكفى لأن اقتنع أنه يعانى حالة نفسية فعلا .. وأنه فى حاجة إلىّ .. وفى حاجة إلى الأريكة .. وأن هذا التحدى الذى يبدو فى حديثه ، ليس تحديا لى ، أنه تحد لنفسه ..

وقال وهو يمد بساقيه الطويلتين فوق الأريكة :

— أحذرك يا دكتور .. إن هناك كثيرا من الأسرار ..

أسرارى وأسرار زوجتى .. سأخفيهـــا عنك .. إنى اعلــم كل أسرارى .. فلست فى حاجة إلى مساعـدتك لاكتشافها وجذبها من عقلى البـاطن .. إنى اعلـم كل مـا فى عقلى البـاطن .. كما اعلم كل ما فى عقلى الظاهر .

قلت وأنـا ابتسم واجلس على مقعد خلف رأســه ، ونوتـة المذكرات بين يدى :

— لا يكفى أن تعلم كل أسرارك .. المهم أن تعرف أى سر منهـا هـو الـذى يسبب لك العقـدة النفسيـة .. وهـذا هـو الصعب ..

قال :

— هذا إذا كنت أعانى من عقدة نفسية !

ثم مد أصـابعه وضم سترته فوق صدره ، ووضـع يديه فوق بطنه ، وقال فى صوت ساخر :

— من أين تريدنى أن أبدأ ؟

قلت :

— كما تشاء .

قال :

— العادة جرت بأن ابدأ بأيام طفولتى ؟

قلت :

— إذا أردت .. فإن طفـولتك ستـؤدى بنا حتما إلى ذكـر زوجتك .

وقد قلت هذا لأقنعه إنى لا أحاول تحليله هو شخصيا .. وأن كل ما أريده هو أن أعرف حالة زوجته .

وسكت برهـة .. واغمض عينيه تحت زجاج نظارتـه كأنه

يحاول أن يرى بهما داخل نفسه ، ثم بدأ يتكلم بصوت بطيء .. بطيء جدا .. ولم يتكلم بلهجة ساخرة .. كانت لهجته جادة حزينة ، كأنه يترحم بها على نفسه :

— كان أبى عالما من علماء الأزهر .. تولى منصب القضاء الشرعي .. ثم تنقل فى مختلف المناصب الدينية إلى أن أصبح عضوا فى هيئة كبار العلماء .. وكان محافظا فى حياته .. حريصا كل الحرص على التقاليد القديمة .. لا يتهاون فيها أبدا .. ولا اذكر أن أمى كشفت وجهها أبدا على غريب .. بل كان لا يسمح لها بأن تقابل ابن عمها عندما يأتى لزيارتنا ، إلا وهى ملثمة الوجه ، وشالها مسدل فوق رأسها ، ليخفى شعرها ، ولا تصافحه إلا ويدها ملتفة بطرف الشال .. وأختى حجزت فى البيت منذ أن بلغت الثانية عشرة .. حرم عليها الذهاب إلى المدرسة .. وكلنا نؤدى فروض الدين بتقديس وإيمان .. وكلنا .. حتى أمى .. نحفظ القرآن كله .. ونصلى ونصوم .. وقد نشأت فى هذه البيئة مؤمنا بها .. كنت أغار على أمى وأختى بعقلية هذه البيئة .. واذكر مرة أنى أثرت ثورة فى البيت لأن البواب تجرأ وصعد إلى الشقة التى نسكنها ورأى أمى وهى بثياب البيت .. واذكر مرة أنى ضربت أختى لأنها أطلت من الشباك ، وكان ابن الجيران فى الشباك المقابل .. وكان أبى يعجب بى وأنا أثور هذه الثورات .. كنت أرى إعجابه فى عينيه.. وفى ابتسامته الوقورة التى يستمع بها إلىّ .. وقد انتهت هذه الثورات إلى أن أمى وأختى أصبحتا تخافانى قدر ما تخافان أبى .. ربما أكثر .

وسكت قليلا وهو يبتسم ابتسامة صغيرة ، ثم استطرد قائلا وابتسامته تتسع :

— كان الشيء الوحيد الذى يدل على تحرر عقلية أبى ، هو أنه أدخلنى المدارس المدنية .. لم يلحقنى بالأزهر .. وكانت أمنيته أن أكون طبيبا لا عالما فى هيئة كبار العلماء .. ومضيت فى دراستى الابتدائية .. والثانوية .. وكنت دائما الأول على زملائى .. وكنت مغرما بالقراءة .. قرأت كثيرا .. وانتهيت من قراءة الكتب القديمة التى وجدتها فى مكتبة أبى .. وبدأت اقرأ الكتب الأجنبية القديمة والحديثة .. بدأت أرى الحياة من زاوية أخرى .. ثم بدأت أناقش البيئة التى أعيش فيها .. واهتز إيمانى بها .. لم أعد أغار على أمى ولا على أختى .. لماذا أغار عليهما .. لماذا اشترك فى حرمانهما من حق الحياة .. إن الحياة أوسع من البيت .. وأوسع مما نراه من الشباك الذى تقف فيه أختى .. واستغرقت هذه المناقشة كل اهتمامى فى فترة من فترات عمرى .. ووصل بى الأمر إلى حد محاولة إخراج أمى وأختى من هذه البيئة .. من هذه العقلية التى تحكمهما .. ولكن حالتهما كان ميئوسا منها .. أنهما راضيتان سعيدتان بهذا الركن الضيق من الحياة .. رضاء الجاهل وسعادته.. فتركتهما وشأنهما .. وانطلقت وحدى .. اكتشف الآراء الجديدة . والمجتمعات الجديدة .. وأفهم الحياة فهما جديدا .. وفى خلال ذلك أهملت الصلاة .. وأهملت الصوم أيضا .. وكنت أهرب من والدى حتى لا يكتشف إهمالى لفروض الدين .. وكنت أكذب عليه أحيانا عندما يسألنى .. هل أديت الصلاة .. ولم أكن أكذب عليه

خوفا منـه ، ولكن خوفا من جرح إحساسه الدينى .. ثم لم أعـد أكلف نفسى ، بعـد أن دخلت الجامعة ، مشقـة الهروب منه أو الكذب عليه .. ولم يعـد هو أيضا يحاسبنى على تأدية فـروض الدين.. كـان قـد شاخ ، وضعف ، واعتبرنى رجـلا مسئولا عـن دينى.. وقد مـرت علىّ ترة اهتز خـلالها إيمانى بـالله .. شملت ثـورتى الفكـرية وجـود الله .. واعتقـدت أنى لست فى حاجة إلى الإيمان به .. وقـد عشت هذه الفترة عندما أقمت فى إنجلترا لأعـد للـدكتـوراه.. ولكنى عـدت إلى الإيمان بـالله .. عــدت لأنى شعـرت بأنى فى حـاجــة نفسيـة لهذا الإيمان.. إنه إيمان مريح ، حتى لو شك فيه العقل .

وسكت الدكتـور حسن ، وهو يبلل شفتيـه بلسانـه كأنه يغسلهما من آثار الكـلام .. ومد يده ونزع نظارتـه من فوق عينيه ، وضغط بأصابعه على أرنبة أنفه ، ثم قال :

— هذا هو أهم ما فى حياتى .. أهم ما فيها هو التطورات الذهنيـة التى اجتزتها .. واعتقد أن هـذه التطورات يمكن أن تساعدك كطبيب نفسانى أكثـر من ذكر الحوادث التى مرت بى .. وعلى العمـوم لم يكن فى حيـاتى حـوادث ذات شأن .. كانت حياة هادئة .. حيـاة بين الكتب .. وكل ما يحدث فيها ، يحدث فى عقلى وفى تفكيرى .. لا فى العــالم الخارجى المحيط بى ، وقـد مضيت فى هـذه الحياة إلى أن عـدت من إنجلترا .. وبعد خمس سنـوات من عودتى التقيت بـدرية .. زوجتى .. وقد وجدت فيها كل ما كنت أنشده فى الفتاة التى أتزوجها.. كانـت متحررة فى عقليتهـا .. مثلى .. وتحب القراءة .. مثلى .. والموسيقى .. والهدوء .. كنا متفقين فى كـل شىء .. وقضينا

سنوات سعيدة حلوة .. إلى أن بدأت هذه الحالات النفسية.. وهنا بدأ دورك فى حياتنا .

وسكت كأنه انتهى من حديثه ، ولكنه ظل راقدا على الأريكة ، كأنه مستريح فى رقدته ولا يريد أن يقلق راحته أحد ..

وقلت لأدفعه إلى مزيد من الكلام :

— متى بدأت زوجتك تعانى هذه الحالات النفسية ؟

وعقد ما بين حاجبيه ، يحاول أن يتذكر ، ثم قال :

— ربما بدأت بعد أن أصبت بنوبة الشلل لأول مرة .. وقد فسرت حالتها على أنها نتيجة جزعها علىّ .. ولكن عندما استمرت هذه الحالة اقتنعت بأنه لابد أن يكون هناك سبب آخر غير مجرد الجزع .

قلت فى هدوء :

— هل كانت زوجتك أول امرأة فى حياتك ؟

ورفع عينيه إلىّ وابتسم ابتسامته الصغيرة الساخرة ، ثم عاد وعدل رأسه وقال فى صوت متراخ كسول :

— انها أول حب.. ولكنها ليست أول امراة.. وعلى العموم ليس فى حياتى كثير من النساء.. لقد قضيت حياتى حتى تخرجت فى الجامعة ، وليس فى حياتي أى امراة .. وقد كنت اعتبر هذا نقصا فىّ.. ولكن طبيعتى لم تساعدنى على التغلب على هذا النقص .. وبعد أن سافرت إلى انجلترا التقيت بأول امرأة فى حياتى.. كان اسمها ليزا .. وقد دهشت ليزا عندما اكتشفت انى بكر .. وضحكت كثيرا.. وضحكت معها.. ثم تعرفت فى انجلترا بفتيات أخريات .. ولكنى لم أكن

مستهترا .. وبعد أن عدت إلى مصر ، التف حولى كثير من البنات .. وكنت أعلم انهن يلاحقننى طمعا فى الزواج بى .. فكنت اكتفى بمغامرات عابرة مع كل منهن .. مغامرات بسيطة قد لا تتعدى الحديث فى التليفون .. إلى أن التقيت بدرية ، وكانت الوحيدة التى لم تلاحقنى .. وربما كان هذا أحد الأسباب التى دفعتنى إلى الزواج بها ..

قلت فى بساطة :

— وهل كنت أول رجل فى حياتها ؟

واعتدل جالسا على الأريكة فجأة ، ونظر إلىّ نظرة مترددة ، ثم نكس عينيه ، وابتلع ريقه ، وقال فى صوت خفيض :

— لقد كانت مخطوبة قبل أن نلتقى .. ولكن هذا لا يهم.. حتى لو لم تكن مخطوبة ، فان من حقها أن تحب .. أن تعيش .. ما دامت ليست مرتبطة بعهد .. لماذا أعطى لنفسى حق الحياة قبل الزواج ، وأحرم منه غيرى .. لمجرد انى رجل وهى امرأة ! ان الإنسانية لا تختلف فى الرجل عنها فى المرأة ..

وقفز واقفا .. وهو يستطرد قائلا :

— أظن هذا يكفى اليوم .. انى أترك الموضوع كله لك .. حاول أن تعيد درية إلى حالتها الطبيعية ..

ومد يده يصافحنى ، قبل أن ينتظر كلمة منى ، وقال :

— شكرا .. آسف لازعاجك !

وخرج من الباب بسرعة ..

وعلمت بعد ذلك انه ترك قيمة أتعابى مع مساعدى !!

وتركنى الدكتور حسن وأنا مشغول به ..

انه يبدو مسيطرا سيطرة تامة على نفسه .. لم يبد منه خلال جلسته ما يكشف عن نقطة الضعف فيه ، إلا قيامه المفاجىء من فوق الأريكة عندما سألته عن حياة زوجته الخاصة قبل الزواج ، ثم هذا الحماس الذى بدا فى كلماته وهو يدافع عن حقها فى الحب قبل أن تتزوج ، ثم انصرافه المفاجىء السريع بعد ذلك .. ولكنه لم يقل فى حديثه الطويل شيئا يمكن أن يكشف عن سره .. إذا كانت فى حياته أسرار .. لم يرو حادثا واحدا يمكن أن يؤكد لى شذوذه ، ان كان شاذا .. لقد أصر طول الوقت على أن يقنعنى بأنه « حالة » طبيعية عادية ..

ورغم ذلك فإن حديث الدكتور حسن يمكن أن يكشف عن عقدة .. ليست عقدة خاصة به وحده .. ولكنها عقدة معظم المثقفين فى مجتمعنا .. عقدة المسافة الطويلة التى تفصل بين الثقافة الحديثة بما توحيه من آراء متحررة جريئة ، وبين البيئة المحافظة التى نشأنا فيها ، بكل ما توحيه من تزمت وآراء رجعية .. وكلاهما مرتبط بالآخر ، ارتباط فرع الشجرة المنطلق فى الهواء بالجذور العميقة الممتدة فى باطن الأرض .. ويمكن أن يقال دائما ان كل مثقف يفكر بعقلين .. عقله ، وعقل أبيه .. ويبدو التضارب بين العقلين فى كل تصرفاته .. فهو يطالب بحق الحب لكل البنات ولكنه يحرم منه أخته وأمه ـ لا لأن أخته وأمه فى نظره ـ صنف آخر من النساء .. ولكن لأن أخته وأمه أقرب إلى بيئته

التى يحكمها عقل أبيه ، منهما إلى ثقافته التى يحكمها عقله.. وهـو يسمح لنفسـه بأن يخرج مع فتـاة ، ولكنـه لا يسمح لنفسه بأن يـرقص التشاتشا ، يسمح لابنتـه بأن ترقص أو تخرج مع شـاب .. و .. و .. كل المتنـاقضات فى تصرفـاتنـا الاجتماعيـة سببهـا هذه المسـافـة البعيـدة التى تفصل بين ثقـافتنـا وبيئتنـا ، أو بين عقولنـا التى حـررتها الثقـافـة ، وتصرفاتنـا التى تقيدهـا البيئة .. ويقـال دائما أن الشاب فى المجتمع الشرقى الحديث يختـار الفتـاة التى يحبها بعقلـه ، ويختـار الفتاة التى يتـزوجها بعقل أبيـه .. إن الزواج أكثـر التصاقا بالبيئة من الحب .. و « عقل أبيه » هو العقل الباطن الذى ترسب فيه كل مخلفـات البيئة ، والذى يتحرك لا إراديا ليوجه تصرفات وذوق الشـاب المثقف ، توجيها يتناقض مع ثقافته ..

ولكن ..

هذا التنـاقض بين الثقافـة الجديدة ، والبيئـة التى نشأنا فيهـا ، إذا كان يسبب معـانـاة نفسيـة مستمرة ، إلا أنـه لا يكفى لوصول هذه المعاناة إلى حـالة الخطر ، أو حالة الأزمة النفسية .. إلا إذا وصل التناقض إلى حد معين تشتد فيه قوة الجذب بين العقل الواعى والعقل الباطن ..

والعقل الـواعـى مـربـوط دائما إلى العقل البـاطن بحبل طـويل .. طـويل جـدا .. ويستمـر العقل الـواعى سـائرا فى طريقه وراء الثقافة الحديثـة والمجتمع الجديد ، وهو يجرجر وراءه هـذا الحبل الطـويل ، إلى أن يصل إلى نقطـة معينـة ، ينتهى عندها طـول الحبل ، فيحس بشىء يجذبه .. ويحاول أن يستمـر فى طـريقـه ، أن يتقـدم فتشـده قـوة الجذب ..

وتشده أكثر .. إلى أن يسقط العقل منكفئاً على وجهه..

فإذا كانت هذه هى حالة الدكتور حسن .. فما هى النقطة التى وصل إليها ، أو الحادث الذى اعترض حياته ، وانتهى به إلى هذه الحالة النفسية التى تسبب له نوبات الشلل المؤقت .. إذا كان فعلا ضحية حالة نفسية ؟!

هذا ما يجب أن أصل إليه ..

والوصول ليس سهلا .. لأن المريض المثقف يستطيع دائما أن يستعمل ثقافته فى خداع نفسه .. إنه يستطيع أن يبرر تصرفاته الشاذة تبريرا يرضى عقله الواعى ، ويخفى عنه حقيقة جنونه .. فإذا كان يحادث نفسه بصوت عال ، استطاع أن يبرر هذه الحالة بأنه يفكر بصوت عال .. وأن التفكير بصوت عال يساعد على تركيز المخ .. و .. و .. إلى أن يصل إلى اقناع نفسه بأنه ليس شاذا ، ولا مجنونا . ولا يستطيع بذلك أن يكبت جنونه ويستمر فى كبته ، إلى أن ينطلق هذا الجنون فى ظاهرة عضوية ، كالاصابة بالشلل المؤقت ..

وما دام المريض قادرا على خداع نفسه ، وتبرير جنونه ، فهو أقدر على خداع الطبيب ..

إنها حالة صعبة ..

والمعركة بينى وبين الدكتور حسن - إذا كانت هذه هى حالته - معركة طويلة ، سلاحى الوحيد فيها .. الصبر !

ولم يتصل بى الدكتور حسن فى الأيام التالية .. ولم أكن أطمع فى أن يتصل بى .. كنت أعلم أن دوره فى هذه الفترة هو الهروب .. الهروب من نفسه ، والهروب منى ..

ثم جاءت السيدة حرمه فى الموعد الذى سبق أن حددته لها ..

لم تكن مضطربة .. ملامحها ثابتة ، وحركاتها رشيقة محترمة .. ولكنها كانت مرهقة .. لونها باهت .. وحركاتها الرشيقة المحترمة يشوبها اعياء .. وفى عينيها لمعة عناد وتصميم .. عناد شديد ..

وجلست بجوار مكتبى وهى تضرب بفردة قفازها فوق حقيبتها .. وظلت ساكتة .. كأنها جاءت إلىّ لتستريح بعد أن مشت مشوارا طويلا ..

وابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، وقلبى يكاد يطل من بين شفتى ليمسح عذابها ، وقلت :

— كيف الحال ؟

قالت دون أن تنظر إلىّ :

— يزداد سوءا ..

قلت وأنا أمد عنقى نحوها :

— كيف ؟

وجذبت من صدرها تنهيدة عميقة ثم قالت :

— لقد استمر أياما فى محاولة اقناعى بأنى طرشاء .. ولكنى كنت قد قررت أن أتجاهل محاولته .. أصبحت لا أهتم إذا رفع صوته عندما يحدثنى .. أو خفض صوته .. أو ادعى أنى لم أسمعه .. وكنت عنيدة .. عنيدة إلى حد القسوة على نفسى .. وعليه .. وكنت ألاحظ خلال هذه المدة أنه يزداد عصبية .. لا يكف عن الحركة فى أنحاء البيت . ولا يستطيع أن يستمر فى القراءة كعادته .. ثم فجأة ، ذات

صبــاح ، سألنى : هل أودعت الشيـك فى البنك .. ودهشت ، فلم يكن قـد أعطانى شيكـا لأودعه فى البنك .. ولكنـه صمم على أنـه أعطانى الشيك ليلـة أمس، وأنى وضعتـه فى دولابى الخاص إلى أن أودعه فى البنـك .. وعندما صممـت على أنه لم يعطنى شيئـا ، فتح دولابـى الخاص .. فتحـه بعنف .. كـاد يكسره .. وإذا بى أجد الشيك بداخلـه .. مؤكد إننى لم أضع هـذا الشيك فى دولابى .. هـو الذى وضعـه .. وفهمت .. أنـه يحاول أن يلجأ إلى طريقة أخرى لإيهامى بأنى مجنونة .. أو ليجننى فعلا .. وبعد يوم واحد عاد يسألنى عن ساعته التى أعطاها لى لأرسلها للتصليح .. ولم يكن قد أعطانى ساعته .. وبعـد مناقشـات عنيفة بينى وبينـه .. أخـرج الساعـة من حقيبـة يدى .. هـو الـذى وضعها فى حقيبتى .. وقـاومت .. قاومت كل ذلك .. وحـاولت أن أقاومه فى هـدوء .. حاولت ألا أقنعـه بأن حـالته تـزداد سـوءا .. وأن تصرفـاته تصرفـات مجنون يحاول أن يقنعنى بأنى أنـا المجنونـة .. وكنت أنفرد فى غرفتى وأبكى .. وبكيت كثيرا .. إلى أن كان هذا الصباح .. وحـاول مرة أخـرى أن يـوهمنى بأنـه أعطانـى مائة جنيـه لأحتفظ بها .. ففقـدت أعصابى .. لم أعـد احتمل . وصرخت فى وجهه . أنت مجنون .. مجنون ..

وسكتت دريـة برهـة وهى تضغط بأسنانها على شفتهـا السفلى ، كأنها تقاوم دموعها ..

وسألتها برقة :

— ماذا فعل بعد أن واجهته بجنونه ؟

قالت :

— وقف أمامى متصلبا .. وبرقت عيناه ببريق عجيب مخيف .. وارتعشت شفتاه بشدة .. ثم انسحب من أمامى فى خطوات بطيئة ، ورأسه واقع على صدره .. ودخل غرفة مكتبه ، وأغلق بابها عليه بالمفتاح .. وجريت وراءه .. وأنا أناديه .. حسن .. حسن .. ولم يرد علىّ .. وأخذت أطرق بكلتا يدى باب غرفة المكتب.. ولم يفتح لى .. إنه لا يزال حتى الآن سجينا فى مكتبه ..

وسكتت ..

وسكت معها برهة ، ثم قلت فى صوت هادىء رقيق :

— هل شاهدت فيلم « ضوء الغاز » ؟

ونظرت إلىّ فى دهشة وقالت :

— ماذا تقصد ؟

قلت محتفظا بهدوئى :

— انه فيلم عرض فى القاهرة ، ومثلته انجريد برجمان وجيمس ماسون .. يدور حول زوج يحاول اقناع زوجته بأنها مجنونة ..

واتسعت عيناها فى غضب ، وقالت فى حدة :

— هل تقصد أن كل ما قلته لك ، هو مجرد قصة نقلتها عن فيلم شاهدته ؟

وكنت أعلم أن هذا محتمل .. فكثير من المرضى النفسانيين يتأثرون بأفلام السينما .. إلى حد أن ينقلوا وقائعها إلى حياتهم الخاصة .. ولكنى أخفيت هذا الاحتمال عنها .. أخفيت شكوكى ، وقلت لها كاذبا :

— لا .. أقصد أن زوجك ربما تأثر بهذا الفيلم ..

ونظرت إلىّ كأنها تفحصنى ، ثم قالت :

— على كل حال .. أؤكد لك أنى لم أشاهد هذا الفيلم .. وأرجوك .. أرجوك أن تصدقنى !

قلت لها فى هدوء يثيرها :

— إنى أصدقك .. ليس لدى دليل أكذبك به !

وهمت أن تثور ، ولكنى استطردت بسرعة قبل أن أترك لها فرصة للثورة :

— وهل لا يزال يصر على أنك طرشاء ؟

قالت :

— نعم .. لقد أضاف محاولة اقناعى بالنسيان ، إلى محاولة إقناعى بأنى طرشاء ..

قلت وأنا انتقل بها إلى موضوع آخر :

— كم كان عمرك عندما تزوجتما ؟

قالت بلا تردد :

— عشرون سنة ..

قلت :

— وكم كان عمرك عندما أحببت لأول مرة .. قبل الزواج ؟

قالت بعد تردد وهى تنظر إلىّ فى تعجب :

— كنت فى السادسة عشرة .. لا .. الخامسة عشرة ..

وسكت مطرقا ..

وعادت تقول :

— ماذا نستطيع أن نفعل .. لقد زدتنى حيرة ..

قلت وأنا ابتسم ابتسامة صغيرة :

— تأكدى أنى أكثر منك حيرة .. إن العلاج يبدأ دائما

باعتراف المريض بحاجته إلى العلاج .. وإلى الآن لم يعترف زوجك بحاجته إلى العلاج ، ولا .. و ..

وتوقفت .. كانت غلطة انزلق فيها لسانى ..

وقالت ساخرة :— ولا أنا .. أليس كذلك ؟

قلت :

لا أقصد ، ولكن لو أنك اعترفت بحاجتك إلى العلاج ، لكان هذا أسهل علىّ .. حتى لو لم تكونى مريضة .. ولأدى بى مباشرتك بالعلاج ، إلى علاج زوجك ..

قالت وهى تكاد تصرخ :

— لماذا تصر على أنى فى حاجة إلى علاج .. إنى إذا جننت فلن يكون زوجى السبب .. أنت السبب !

قلت وأنا انظر إليها بعينين مشفقتين :

— إنى أشكو إليك حيرتى .. هذا هو كل شىء .. صدقينى ، ليس من مهمتى أن أقول كل إنك مريضة .. ولا أن أقنعك أنك مريضة .. إنها مهمة المريض نفسه أن يحس بمرضه ..

وسكتت وصدرها يتهدج من الغضب ، وأصابعها تنقر على مسند المقعد فى دندنات عصبية ، ثم قالت وهى لا تنظر إلىّ :

— وما العمل ؟

قلت :

— الصبر ..

وقفزت واقفة وقالت دون أن تنظر إلىّ أيضا :

— شكرا ..

ثم اتجهت إلى الباب ، وخرجت دون أن تحيينى .

وأحسست أنها لن تعود أبدا ..

ونظرت إلى نوتة المذكرات الطبية التى أسجل فيها الحالات التى ترددت علىّ للعلاج .. وطويتها وأنا مقتنع أنى لن افتحها مرة ثانية على حالة الدكتور حسن ..

واسترحت قليلا .. ثم استقبلت الحالة التالية .

ومر الوقت ..

ساعة .. ساعتان . ثم فجأة دخل علىّ مساعدى ، ليقول لى أن حرم الدكتور حسن منتظرة على سماعة التليفون ، وتقول إن الحالة خطيرة ! ..

وحوّل مساعدى المكالمة إلى تليفونى الخاص الموضوع على مكتبى ، وسمعت صوت حرم الدكتور حسن ، تقول .. تكاد تصرخ :

— زوجى يا دكتور .. لقد أصيب بنوبة الشلل .

وقلت بسرعة :

— سأكون عندك بعد نصف ساعة .. العنوان من فضلك؟

وقالت :

— ١٧ شارع حسن صبرى .. أرجوك يا دكتور .. أسرع !

بعد نصف ساعة كنت فى بيت الدكتور حسن ..

وصدمت عندما التقت عيناى بقطع الأثاث التى تملأ بهو

الاستقبال .. كنت أتصور الأثاث فى بيت الدكتور حسن ، بسيطا ، مريحا ، أنيقا .. يعبر عن ذوق عالم اقتصادى وزوجة هادئة .. ولكن الأثاث الذى رأيته كان أثاثا ثقيلا متنافرا مرتبا ترتيبا مرتبكا.. دولاب ضخم على الطراز الصينى وبجانبه مقعد أوبيسون .. وأريكة واسعة على الطراز الفرنسى وبجانبها مائدة مودرن .. و.. وتحف كثيرة غالية .. إنه بيت يدل على الثراء ولا يدل على الذوق البسيط واختيار أثاث البيت يدل ظاهريا على الشخصية النفسية لأصحابه .. والشخصية التى يبرزها هذا الأثاث ، شخصية مرتبكة معقدة .. ولا أدرى هل هى شخصية الدكتور حسن، أم شخصية زوجته .. ربما كانت شخصية الاثنين .. ربما كان هذا الأثاث يدل على التنافر بين الشخصيتين رغم أن كليهما أكد لى أكثر من مرة أنه متفق مع الآخر فى ذوقه .

وبقيت وحيدا فى البهو أكثر من خمس دقائق .. ثم جاءت السيدة حرم الدكتور حسن تهرول فى خطواتها .. ترتدى الثوب الذى كانت ترتديه عندما جاءتنى فى العيادة .. وخصلة من شعرها ساقطة فوق جبينها .. ونظرات مضطربة فى عينيها .. وقالت فى صوت مبهور :

— آسفة .. إن الدكتور أنور المفتى لا يزال معه !

وقلت وأنا ابتسم لها مواسيا :

— ماذا حدث ؟

قالت وإحدى يديها تضغط الأخرى فى حركة عصبية :

— عدت من عيادتك ، فوجدته لا يزال حابسا نفسه فى غرفة مكتبه ، والباب مغلق بالمفتاح .. ونقرت على الباب نقرات خفيفة فلم يفتح لى .. فذهبت إلى الشرفة ودرت فيها حتى استطعت أن أراه من خلال النافذة الزجاجية المغلقة .. رأيته ملقى على المقعد وعيناه جاحظتان .. وشفتاه تتحركان بلا صوت .. ويحاول أن يقوم فلا يستطيع .. انى أعرف هذه الحالة . حالة الشلل التى تصيبه .. وصرخت .. وناديت الطباخ والسفرجي والسائق .. وتعاونوا كلهم على كسر الباب .. وحملناه إلى فراشه .. واستدعيت الدكتور أنور المفتى .

وسألتها بسرعة :

— ماذا فعل عندما رأى سائقه ، وهو فى هذه الحالة ؟

قالت وهى تنظر إلىّ فى دهشة :

— لا شىء .. لقد كان مشلولا ..

قلت :

— اعلم .. ولكن حاولى أن تتذكرى كل شىء .. نظرات عينيه .. حركات ذراعيه .

وقطبت ما بين عينيها تحاول أن تتذكر ، ثم قالت فى تردد :

— اعتقد أنه كان ينظر إليه نظرات غريبة .. و ..

وسكتت برهة ، ثم انطلقت كأنها رأت الصورة كاملة :

— نعم .. نعم .. لقد كان ينظر إليه نظرات مخيفة .. كل

عينيه جاحظتان .. وعندما حاول أن يتعاون مع الباقين فى حمله ، ازاحه بذراعه السليم .. ضربه على صدره بقوة .. فابتعد السائق ، وترك السفرجى والطباخ يحملانه .. لقد كان زوجى يكره سائقه فى هذه اللحظة .. كان يكرهه بجنون .. ولكن ، كيف عرفت يا دكتور ..

قلت وأنا ابتسم لها :

— لم أعرف .. ولكنى استنتجت ..

واستطردت اسألها :

— هل سافر الدكتور حسن هذا الأسبوع إلى الإسكندرية ؟

قالت :

— لا ..

قلت :

— هذه أول مرة يصاب فيها بنوبة الشلل دون أن يسافر إلى الإسكندرية ؟

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تحاول أن تفهمنى :

— اعتقد .. ماذا تقصد ؟

قلت دون أن أجيب عن سؤالها :

— هل أستطيع أن أراه ؟

قالت :

— ولكنه لا يستطيع أن يتكلم .. لسانه مشلول .. وأنت تعالج مرضاك بالكلام ؟

قلت :

— ليس كل العلاج بالكلام .. يستحسن أن أراه !

قالت :

— الدكتور أنور المفتى لا يزال عنده ..

قلت :

— أنور المفتى صديقى .. ولن يمانع فى أن أراه ..

قالت :

— قد تسوء حالته عندما يراك .. أنى أعرف أنه يكرهك.. أو على الأقل لا يريد أن يراك .

قلت :

— لن تسوء حالته عما هى ..

ونظرت إلىّ وفى عينيها نظرات جزعة .. جزع صادق على زوجها.. ثم قالت فى صوت يمزقه جزعها :

— تفضل ..

وسارت أمامى فى ممر خافت الضوء يفصل بين الحجرات ..

والواقع أنى لم أكن أريد أن أرى الدكتور حسن ، ولكنى كنت أريده أن يرانى ، حتى يشعر بأنى رأيته فى أسوأ حالاته . يشعر أنى كشفت عورته النفسية .. فيضطر بعد أن يسترد قواه أن يأتى إلىّ ليبرر لى هذه الحالة .. وإذا أتى إلىّ ، فسيأتى وهو أكثر استسلاما ، وأضعف قدرة على السيطرة على نفسه .

والتقيت بالدكتور أنـور المفتى خارجا من حجرة المريض بعـد أن انتهى من الكشف .. ووقفنـا نتحادث .. إنـه يـؤمن بنفس التشخيص الـذى أجمع عليـه معظم الأطباء .. حـالـة نفسية عصبية أدت إلى التأثير فى بعـض مراكز المخ ، وانتهت بحالة شلل مؤقت .

ثم دخلت على الدكتور حسن ..

وما كـاد يرانى حتى خـرجت عيناه .. اتسعتا وبـرزتا .. وفيهما هلع .. وخـوف .. واضطــراب .. وتحركت شفتـاه .. فتحهما إلى آخـــرهما .. ولســانـــه راقـــد بينهما لا يستطيع حـراكا.. وانطلـق من حلقه صـوت كـالخوار المرتعش .. ثم رفع ذراعه السليم وأشاح به فى وجهـى كأنه يبعد عن نفسه شبحا .. ثم غطى وجهه بكفه ودمـوع صامتة مريضة تسيل بطيئة حزينة ، على خديه ..

وكان هذا يكفى ..

وخرجت من الغرفة بسرعة ..

والـزوجـة الجزعـة تجرى ورائى وهى تهمس فى صــوت مبحوح :

— قلت لك أنه سينزعج لرؤياك .. أرأيت كيف استقبلك ؟

قلت :

— هل أوصى له الدكتور أنور بدواء منوم ؟

قالت :

— نعم ..

قلت :

— هل تستطيعين أن ترسلى لى السائق غدا ..

قالت :

— لماذا .. ماذا تريد أن تفعل ؟

قلت :

— لا أدرى بعد .. ولكنى فى حاجة إلى هذا السائق ..

ونظرت إلىّ فى تردد ثم قالت فى استسلام :

— سأرسله لك ..

وتركتها فى جزعها ، وعدت إلى البيت وأنا أحاول أن أجمع فى ذهنى كل خطوط حالة الدكتور حسن ..

من الواضح أن نوبة الشلل المؤقتة تصيبه عقب اشتداد المعاناة النفسية ، ووصولها إلى قمتها .. وهذه النوبة الأخيرة أصابته عقب أن استمر أسابيع يحاول إقناع زوجته بأنها مجنونة .. وعقب أن خاف انكشاف سره على يدى ، بعد أن علم أن زوجته قد لجأت إلىّ.. ليس لهذه النوبة أى علاقة بأسعار البورصة أو بأعماله المالية ، أو بالإرهاق ، كما كان يدعى .. فأسعار البورصة طوال الأسابيع الماضية كانت ثابتة .. ولم يحدث شىء جديد فى الدوائر المالية ، ثم إنه لم يشك لىّ ولا لزوجته إرهاقا .. إنها المعاناة النفسية التى تؤدى إلى الشلل .. ولكن .. إذا كانت هذه النوبة الأخيرة قد أصابته بسبب تدخل فى حياته الخاصة .. فما هو سر النوبات السابقة ؟

إن الخيط الوحيد الذى يربط بين كل نوبات الشلل السابقة ، هو أنها كانت تحدث عقب عودته من الإسكندرية .

فماذا كان يحدث له فى الإسكندرية ؟

بعيدا عن بيته .. بعيدا عن زوجته ..

رجل له حياة خاصة يخفيها هناك ، فى الإسكندرية ؟

هذا ما قررت أن اسأل فيه سائقه الخاص .. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى استعين فيها بسائق خاص ، للكشف عن أسرار مخدومه .. سبق أن استعنت بهم فى حالات كثيرة ، وكانوا دائما خير معاونين لى .. إن السائق الخاص أقرب الناس إلى الحياة الخاصة !

●●●

وجاءنى الأسطى صالح فى اليوم التالى ..

إنه كما وصفته السيدة حرم الدكتور حسن ..

ضخم الجثة .. وقح النظرات .. ابتسامته لزجة .. ووجهه المنتفخ يلمع كأنه قد غسله بالزيت ..

ووقف أمامى وهو ينظر فى وجهى بوقاحة رغم أنه يحنى رأسه قليلا ادعاء للأدب ..

وقال فى صوت أكثر لزوجة من ابتسامته :

— تحت أمرك يا سعادة البيه ..

ولم ابتسم له ، نظرت إليه فى قوة أحاول أن أطفىء نفاقه وخبثه، وقلت فى صوت جامد :

— اجلس يا أسطى صالح ..

ورد وهـو يزال يبحث بعينيـه فى وجهى كأنـه يحاول أن يكتشف نقطة ضعف فى ينفذ منها :

— العفو يا سعادة البيه .. لا يمكن أبدا ..

وتركتـه واقفا أمـامى ، لم ألح عليه أحسست أنـه صنف من النـاس لا يفلح معه التـودد ولا الذوق .. وقلت لـه وأنا احتفظ أمامه بلهجة السيد :

— أنت تعلم أن الدكتور حسن مـريض .. ومرضه خطير قد يقضى عليه .. وسبب مـرضه هو حالة نفسيـة ، أو حالة عصبيـة .. ولكى نستطيع أن نعـاونه على الشفـاء ، يجب أن نعلم كل شىء عنـه .. عـن حيـاتـه الخاصـة .. واعتقـد أنك تعرف الكثير عن حياته الخاصة ..

قال وهو يبلل شفتيه بلسانه :

— تقصد سعـادتك أن الدكتور حسن مجنـون .. أبدا .. مستحيل .. أنه اعقل الناس .. فى عمـرى كله لم أجد رجلا فى مثل عقله .. يا سلام .. و ..

وقاطعته قائلا :

— لا أقصـد أنه مجنـون .. لو كـان مجنونـا لما أصيب بـالشلل .. ولكنى أقصد أن فى حيـاتـه الخاصة مـا يعانيـه ويؤدى إلى مرضه ..

قال فى خبث وهو ينظر إلىّ من تحت حاجبيه :

— أبدا يا سعادة البيه .. و ..

وعدت أقاطعه :

— ألم تلاحظ عليه أى تصرف شاذ ..

قال وقد ارتفع صوته قليلا :

— مستحيل يا دكتور .. الدكتور حسن راجل يمشى بحساب.. بميزان .. بالدقيقة .. لو تأخرت عنه دقيقة واحدة احتسبها غلطة لا تغتفر .. و ..

وقاطعته :

— أين تعودت أن تذهب به ؟

قال :

— أبدا يا سعادة البيه .. من البيت للمكتب ، ومن المكتب للبيت.

قلت بسرعة كأنى أفاجئه :

— وعندما تسافر معه إلى الإسكندرية ؟

وفوجىء فعلا .. اهتزت رموش عينيه .. وابتلع ريقه .. وقال وهو يدير وجهه عنى ، وقد تغيرت لهجة صوته .. أصبحت لهجة خفيضة :

— برضه من البيت للمكتب ، ومن المكتب للبيت ..

ونظرت إليه طويلا .. نظرت فى عينيه حتى اضطر أن ينكسهما، وقلت فى لهجة حادة :

— يجب أن تتكلم يا أسطى صالح .. انى لا أطالبك بخيانة مخدومك ..ولكنى أطالبك بأن تساعدنى على علاجه.. وأنا أريد أن أعرف كل أسراره لأعالجه بها .. وأعرف أن له أسرارا .. واعرف أنك تشاركه هذه الأسرار ..

ورفع عينيه إلى وجهى ، وفيهما تصميم ، كأنه قرر أن يتحدانى ، وقال :

— أوهام يا دكتور .. لا أسرار ولا يحزنون .. الست حرم الدكتور كانت تعتقد أيضا أن فى حياته أسرارا .. وكانت تسألنى عنها .. الست هى التى تعانى حالة عصبية .

وترددت أمامه هنيهة .. لقد رد مفاجآتى ، بمفاجأة أخرى ، وتمالكت دهشتى سريعا ، وقلت :

— كيف عرفت أن حرم الدكتور تعانى حالة عصبية ؟

قال وهو يعود ويدير رأسه عنى :

— لا أعرف .. ولكنها عصبية أكثر من الدكتور .. الدكتور هادىء دائما .. دائما .

ثم رفع رأسه إلىّ ورفع صوته ، واستطرد :

— إنها كل يوم والثانى تحاول أن تطردنى من الخدمة.. بلا سبب !

قلت :

— لابد أن يكون هناك سبب ..

قال فى برود ووقاحة :

— عدم استلطاف ..

وسكت برهة ، أفكر فى وسيلة أجره بها إلى الكلام ، ثم قلت فى يأس :

— نعود إلى الدكتور حسن .. ألم تلاحظ عليه تصرفات غريبة خصوصا عندما تسافر معه إلى الإسكندرية ؟

قال فى برود :

— لا ..

قلت :

— أين يقيم عندما يذهب إلى الإسكندرية ؟

قال بنفس البرود :

— فى البيت ..

قلت :

— نفس البيت الذى يقيم فيـه مع زوجته خـلال شهور الصيف.

وتنهد كأنه زهق من أسئلتى السخيفة ، وقال :

— طبعا ..

قلت :

— من تعود أن يزوره فى البيت ؟

قال وهو يثنى إحدى ركبتيه ليستريح فى وقفته :

— لا أحد .. كل مقابلاته فى المكتب ..

قلت وأنا أنظر فى عينيه :

— ألم تلاحظ أن جميع المرات التى أصيب فيهـا بالشلل كانت عقب عودته من الإسكندرية ؟

قال :

— لا والله .. لم ألاحظ شيئا !

قلت :

— أنا لاحظت ذلك .. وأريد أن أسألك عن السبب ؟

قال :

— الله اعلم .. أنا سائق ياسعادة البيه .. لست دكتورا !!

وعدت أنظر فى وجهه ..

إنه لن يتكلم ..

ربما تكلم لو رشوته .. ببعض المال .. إنه من هذا الصنف الذى يمد لسانه مع يده .. ولكنى لن أرشوه .. إن الرشوة قد تجعله يتكلم ، ولكنها لا تكفى ليقول الصدق .

وقلت له فى ازدراء :

— شكرا يا أسطى .. هذا يكفى !

وتلكأ قليلا ، كأنه يريد أن يقول شيئا ثم ارخى عينيه كأنه عدل عن الكلام ، وقال :

— العفو يا دكتور .. أى خدمة .. السلام عليكم !

وخرج ..

وبمجرد خروجه رفعت سماعة التليفون ، واتصلت بحرم الدكتور حسن ، وقلت لها فى لهجة حازمة :

— اطلبى الأسطى صالح الآن .. بمجرد أن يصل إلى البيت .. وأبلغيه أنه طرد من خدمتكم .. وأعطيه بقية حسابه ..

قالت والدهشة تنطلق مع صوتها :

— لماذا .. ماذا فعل ؟

قلت :

— لم يفعل شيئا .. ولكن أرجوك .. افعلى ما قلته لك ..

قالت :

— لماذا ؟

قلت :

— ثقى بى ..

قالت محتدة :

— ولكن الدكتور حسن سيغضب عندما يعلم أنى طردته .. أنت تعلم مدى حرصه عليه ..

قلت :

— الدكتور حسن لن يعلم .. لا تقولى له شيئا ..

قالت :

— سيعلم بعد أن يشفى ..

قلت :

— سيعود الأسطى صالح ، قبل أن يشفى الدكتور حسن .

قالت :

— إنى لم أعد افهمك يا دكتور ..

قلت :

— أرجوك مرة ثانية .. ثقى بى .. وستفهمين كل شىء فى حينه..

وسكتت هنيهة مترددة ، ثم قالت وهى تزفر أنفاسها فى سماعة التليفون :

حاضر يا دكتور .. أمرك !

وكنت واثقا أن الأسطى صالح سيعلم أن سبب طرده هو أنه لم يتكلم أمامى .. وكنت واثقا أنه لن يستطيع أن يصل إلى الدكتور حسن وهو راقد مشلولا فى فراشه ، ليشكو إليه أن زوجته قد طردته .. وفى هذه الحالة سيضطر أن يعود إلىّ .. ليتكلم !

●●●

ومضى يوم ..

ويوم آخر ..

وفى اليوم الثالث جاء إلى الأسطى صالح .. وتركته ينتظر فى حجرة الاستقبال بالعيادة إلى أن انتهيت من كل مرضاى .. انتظر أكثر من ثلاث ساعات .. ثم استقبلته فى برود وأنا انظر إليه فى ازدراء .. لم تكن فى عينيه هذه النظرات الخبيثة الوقحة التى رأيتها فى أول مرة .. كان مهتزا .. حائرا .. ضعيفا .. ولم أدعه للجلوس ، ظللت انظر إليه فى برود وهو واقف أمامى فى تواضع وأدب .

وقال فى صوت مبحوح :

— لقد جئت لأطمئن من سعادتك على صحة الدكتور حسن .. سعادتك تعلم أنه مضى علىّ فى خدمته أكثر من عشر سنوات .. فهو أكثر من مخدومى .. إنه عمر طويل .. ليس لى أحد غيره .. و ..

وقاطعته قائلا :

— الدكتو حسن لا يزال فى حالة خطرة ..

وظهر الخوف فى عينى الأسطى صالح ، وقال :

— وهل سيطول مرضه .

قلت بلا اهتمام :

— شهران .. ثلاثة .. ربما خمسة شهور .

وكنت اعلم أن الأسطى صالح يسأل هذا السؤال ليطمئن إلى عودته إلى عمله .. وعلى المدة التى سينقطع فيها مرتبه .

وقال فى جزع :

— ياه .. خمسة شهور ؟!

قلت :

— وربما أكثر .. إننا نحاول أن نعجل بشفائه .. ولكن .. وسكت دون أن أكمل حديثى ..

ونظر إلىّ فى تردد ، ثم قال :

— هل تستطيع سعادتك أن تعجّل بشفائه لو عرفت عنه كل شىء .

قلت بلا اكتراث :

— اعتقد ذلك ..

وعاد يسكت .. سكت فترة أطول كأنـه يفكر خلالها .. ثم انطلق بصوت عال :

— ولكن ما دخل حياته الخاصة فى علاجه ..

وقلت وأنا ابتسم له لأول مرة :

— أنت رجل مثقف يا أسـطى صالح .. ولابد أنك قرأت

اليافطة المعلقة على باب العيادة .. طبيب نفسانى .. والطبيب النفسانى يعالج الناس بأسرارهم .

ونظر إلىّ فى تردد كأنه يحاول أن يفهمنى .. ثم قال :

— إن للدكتور حسن أسرارا .. ولكن .. لو قلت لك هذه الأسرار ، هل تنقلها إلى الهانم .. ؟

قلت :

— ليس حتما .. إلا إذا كان دورها فى العلاج يقتضى أن تعلم بها ..

قال :

— ياخبر أسود .. مستحيل .. يجب ألا تعلم .. مستحيل أن تعلم .

قلت :

— إن شفاء الدكتور حسن ، أهم من إخفاء أسراره عن زوجته .

وسكت الأسطى صالح ..

سكت طويلا .. وهو واقف أمامى محنى الرأس كأنه على وشك البكاء .

وقلت له فى رقة وأنا أشير إلى المقعد الطويل :

— اجلس يا أسطى .. تفضل !

وجلس الأسطى صالح بلا تردد كأنه كان فى حاجة فعلا إلى الجلوس ..

وحنى رأسه ، وظل صامتا كأنه يستجمع قوى لسانه ،

ثم عاد ورفع رأسه ، وقال وصوته مخنوق :

— يا دكتورعيب أتكلم .. عيب والله .. إن مهنتنا كمهنة الطبيب.. السائق الخاص كالطبيب الخاص ، كل منهما يجب أن يحتفظ بأسرار المهنة .. لو تكلمت خنت مهنتى .. وخنت الدكتور حسن .

ولم أرد عليه :

بقيت صامتا انظر فى وجهه بعينين ثابتتين ..

وعاد وحنى رأسه ، وتنهد كأنه يستغفر الله ثم قال وهو ينظر إلى بوز حذائه :

— الدكتور حسن كان دائما رجلا هادئا .. متزنا .. لم تكن له أبدا أسرار حتى قبل أن يتزوج .. لو كانت له أسرار لعرفتها .. فهو لا يجيد قيادة السيارة .. نظره ضعيف .. فكان لا يخرج من البيت إلا معى . ولم أعرف له سرا .. كان كل ما هنالك ، أنه يتردد أحيانا على حفلات خاصة تقام فى بيوت أصدقائه .. ومرة أو مرتين صحب معه إحدى الآنسات ليوصلها إلى بيتها .. وكان رغم شبابه محترما .. يا سلام .. محترم جدا .. كنا نخافه ونحسب حسابه رغم أنه قليلا ما تحدث إلى أحد منا .. أقصد أحد من الخدم .. ولم يحدث أبدا أن خصم من مرتب واحد منا .. أو شخط فى واحد منا .. رجل قلبه طيب .. سكر .. ثم .. تزوج .. تزوج منذ ثمانى سنوات .. ومرت ثلاث سنوات ، ولم يتغير منه شىء .. إنه نفس الرجل الطيب ، الهادىء ، المحترم

السكر.. وكل ما حدث بالنسبة لى أن الهانم زوجته ، لم تكن ترتاح إلىّ .. كانت تعاملنى دائما بقسوة .. ربما لأنى لم اعتبر نفسى فى خدمتها .. أنا فى خدمة الدكتور حسن فقط .. لكنها على أى حال ست صعبة جدا .. تحاول السيطرة على كل شىء .. حتى على الدكتور حسن .

وسكت الأسطى صالح ، واخرج منديلا أنيقا من جيبه مسح به قطرات العرق التى بدأت تنبثق من جبينه ، ثم تنهد، واستطرد قائلا :

— وبعد ثلاث سنوات من زواجه .. سافرت معه يوما إلى الإسكندرية .. وهناك .. كان الدكتور حسن على موعد مع صديق له محام يقع مكتبه فى شارع زغلول .. كان الموعد فى الساعة السادسة مساء .. وذهبنا .. وأوقفت السيارة أمام باب العمارة .. ونزلت منها ودرت لأقف خلفها تأدبا .. كما جرت العادة .. وبقى الدكتور حسن داخل السيارة فى انتظار صديقه .. واقتربت فتاة تبيع اليانصيب .. ومدت يدها داخل السيارة تحاول أن تبيع أوراقها للدكتور حسن .. ولم انتبه لها بادىء الأمر .. ولكنى عندما انتبهت كان الدكتور حسن يتحدث إليها وهو يبتسم .. وكانت يدها لا تزال ممدودة داخل السيارة .. وظننت أنها تلح عليه وتضايقه ليشترى منها ، فحاولت أن أبعدها عن السيارة .. ولكنه نظر إلىّ نظرة تأمرنى بأن اتركها .. وسمعته وأنا دهش ، يعرض عليها أن تشتغل خادمة عنده بدل أن تبيع

اليانصيب .. وقبل أن اسمع بقية الحديث نظر إلىّ نظرة تأمرنى بأن ابتعد .. فابتعدت .. وبعد قليل انصرفت الفتاة ، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة .. وأنا انظر خلفها دهشا .. ان الدكتور حسن قليل الكلام .. إنه لا يحادث أحدا منا إلا بحساب .. كلمات قليلة نسمعها منه كل يوم .. فما الذى دفعه إلى أن يحادث هذه الفتاة القذرة المتشردة ، كل هذا الحديث .. ربما كانت طيبة قلبه .. وحاولت أن أقنع نفسى إن كل ما هنالك أنه رجل طيب القلب .. ولكنى بقيت على دهشتى إلى أن انتهينا من جولتنا ، وعدت به إلى البيت ، وكانت الساعة حوالى الثامنة والنصف ، وقبل أن ينزل الدكتور حسن من السيارة ، التفت إلىّ وتكلم .. وتكلم بسرعة .. وكان يأمرنى أن أذهب إلى شارع سعد زغلول .. لأجد هناك نفس الفتاة بائعة اليانصيب .. واقفة أمام باب نفس العمارة .. فأحملها إلى البيت .. ونظرت إليه وأنا لا أصدق أذنى .. وقبل أن اعبر له عن دهشتى .. وضع فى يدى خمسة جنيهات وهو يقول .. لعل الفتاة تريد شيئا .. إنها ستشتغل خادمة عندنا .

وسكت الأسطى صالح ريثما ابتلع ريقه ، ثم استطرد قائلا :

— وفهمت أن هذه الجنيهات الخمسة لى .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعطينى فيها الدكتور حسن بقشيشا .. لى أو لأى أحد من خدمه .. إنه يدفع لنا مرتبات حسنة ،

ويمنحنا كل عام مكافأة أو عـلاوة .. ولكنه لا يدفع بقشيشا أبـدا .. وفهمت أيضـا مهمتى الجديـدة .. وذهبت إلى المكـان المحـدد ، ووجـدت الفتـاة .. ولم يكن يهمنى أن أحمل إلى الدكتور حسن أى فتاة يريـدها إلا هذا الصنف من البنات .. إنـه شىء مخجل مقرف .. لقـد جلست بجانبى فى السيـارة كأنها صفيحـة زبالـة .. رائحتهـا تثير معـدتى .. ومنظرهـا يفضح الكلب .. وحمدت الله أن أحـدا لم يـرنى وأنا معهـا فى الطـريق إلى البيت .. وصعـدت بها إلى الـدكتـور .. ووقفت انتظـر الأوامـر .. وكـانت الأوامـر هى الانصراف .. انتهت مهمتى .. ولكن لم انصرف .. كانت دهشتى وعجبى أكبر من أن اسكت عليهما .. فبقيت جـالسا فى السيارة أمـام البيت .. وقفت سـاعـة .. وأنا لا أستطيع أن أتحرك .. أريـد أن أعرف السر .. أن أخلص من دهشتى وعجبى .

وفى السـاعـة الخامسة صبـاحـا .. خـرجت الفتـاة من البيت..فناديتها .. وامسكتهـا من يدها فى عنف وقلت لها إنها لو حاولت أن تعود إلى هذا البيت .. فسأستدعى لها البوليس واتهمهـا بـأنها لصـة .. وأجـابت وهى تبتسم : لا تخف ، سعادة البيه قال لى نفس الكـلام .. لن أعود .. وسألتها : كم أعطـاك سعادة البيـه .. ونظرت إلى فى تـردد .. وضغطت على يـدها أكثـر ، فاعترفـت أنه أعطـاها عشرة جنيهـات .. عشرة جنيهـات لهذه الكلبـة .. ثم لاحظت وأنـا أحادثهـا أن عطـرا جميلا ينطلق منهـا .. ولاحظت أن بشرتها نظيفة .. تلمع من

النظافة .. إنها أكثر بياضا .. العماص انكشف عن عينيها .. فبدتا جميلتين.. وشعرها مبلول مضفر .. أتدرى ماذا صنع بها الدكتور حسن .. لقد ادخلها الحمام .. وأخذ يغسلها بنفسه.. قضى ثلاث ساعات يغسل فيها .. كما قالت لى الفتاة .. ثم ..

وسكت الأسطى صالح وهو يهز رأسه ويمصمص شفتيه، ثم رفع عينيه إلى ، وقال كأنه انتهى من حديثه :

— هذا هو سر الدكتور حسن ..

وقلت وأنا أحاول أن احتفظ بوجهى جامدا لأخفى وراءه دهشتى :

— كم كان عمر الفتاة ؟

قال وهو يزفر أنفاسه :

— صغيرة .. فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة !!

وابتسمت .. هذا ما كنت انتظره .

وعدت اسأل الأسطى صالح :

— وكيف كانت حالة الدكتور حسن فى هذا اليوم .. ماذا لاحظت على تصرفاته ؟

قال :

— كان طبيعيا .. عاديا .. هادئا .. متزنا .. كعادته .. حتى الفتاة لاحظت هدوءه واتزانه .. وهو يغسلها فى الحمام ..

قلت :

— وماذا كانت حالته فى اليوم التالى .. ماذا قال لك ؟

قال :

— لا شىء .. كأن شيئا لم يحدث .. لم يحاول حتى أن يفسر سبب اختفاء الفتاة من البيت .. ولم أحاول أن اسأله احتراما له .. وأصبح هذا مفهوما بيننا فى كل مرة يحدث نفس الشىء .. ألا يقول لى شيئا .. وألا اسأله .. وكأن شيئا لم يحدث .. كل ما هنالك أنه يعطينى خمسة جنيهات .

قلت بسرعة :

— وكان نفس الشىء يحدث فى كل مرة تذهبان إلى الإسكندرية ؟

قال :

— لا .. ليس فى كل مرة .. إننا نذهب إلى الإسكندرية كل أسبوع .. وعدد المرات التى حدثت فيها هذه الحالة للدكتور حسن، لا تتجاوز ست أو سبع مرات خلال خمس سنوات..

قلت :

— ودائما تحدث هذه الحالة بلا مقدمات ؟

قال :

— دائما بلا مقدمات .. فجأة !

قلت :

— ودائما نفس الصنف من البنات ؟

قال :

— دائما نفس الصنف .. بائعة يانصيب . شحاذة ..

حتى أصبحت أنـا نفسى اهـدىء من سرعـة السيـارة كلما مررت بواحدة منهن ، لعله يأمرنى بالوقوف .

قلت :

— ودائما صغيرات ..

قال :

— ودائما صغيرات ..

قلت :

— ودائما يدخلن الحمام ويتولى غسلهن بنفسه ؟

قال :

— دائما ..

قلت :

— لقد سـافرت معه مرة إلى أوروبـا ، فماذا كان يحدث هناك ؟

قال . وقد بدأ يسترد كل جرأته ووقاحته :

— لا شىء .. لا شىء أبدا .. قضينا هنـاك شهرا ونصفا الدكتور حسن أعقل وأهدأ رجـل فى العالم .. وهذا ماجننى .. أوروبا مليئة بالبنـات الصغيرات الجميلات .. كلهن نظيفات لسن فى حـاجة إلى حمام .. والدكتـور حسن هناك بعيـد عن زوجته .. ولا أحد يعرفه .. ويستطيع أن يفعل ما يشاء دون أن يتعرض لفضيحة .. ولكنه لم يفعل شيئا .. كأنه قديس .. إلى أن عاد إلى مصر .. وبعـد عودتـه بأسبوعين اثنين ، التقط بائعة يانصيب فى الاسكندرية .. حاجة تجنن .. ذوق يقرف..

أنا نفسى كنت أنال أى فتاة أريدها فى أوروبا .. والدكتور حسن لا يعجبه إلا بائعات اليانصيب فى الأسكندرية .. تفتكر إيه السبب يا دكتور .. لازم عقدة !

قلت وأنا ابتسم له :

— لو عرفت السبب .. لعرفت العقدة .. ولشفى الدكتور حسن.

ثم قمت واقفا ، مستطردا :

— هذا يكفى اليوم يا أسطى صالح ..

ووقف أمامى مترددا يريد أن يقول شيئا .. وفهمت ما يريد أن يقوله .. فقلت له وأنا أصافحه :

— تستطيع أن تعود إلى عملك غدا .. سأحادث الهانم بالتليفون الآن !

وتركنى ..

حائرا ..

ورأسى بين يدى ..

●●●

كان ما عرفته من أسرار الدكتور حسن عن طريق سائقه الخاص ، ما هو إلا انعكاسات عقدته النفسية على تصرفاته الخارجية .

ولكن ..

ما هى عقدته ؟

ما هى العقدة التى تدفعه إلى اشتهاء البنات الصغيرات ،

ويصل بـه الاشتهاء إلى حـد التقاط بـائعات اليـانصيب من الشارع ؟

إنى أرجح أنها عقـدة بسيطـة .. ليست عقـدة مـركبـة .. ليست عقدة ازدواج فى الشخصية ، مثـلا .. أو عقدة التوقف فى نمـو الشخصيـة .. ولكنهـا على كل حـال عقـدة .. ليست مجرد مـزاج .. فإن رجـلا فى مثل مكـانـة الـدكتـور حسن لا يمكن أن ينسـاق وراء مثل هـذا المزاج ، إلا إذا كـان فى داخله قوة لا يستطيع أن يقاومها تـدفعه إليه .. وهو ينساق وراء هذه العقـدة .. وهو بكامل وعيه .. بكـامل شخصيته .. إنه يلتقط البنت من الشـارع وهو يعلم أنه أحد كبـار رجال الاقتصاد فى البلـد .. ويدخل بها إلى الحمام ويظل يغسل بها ثلاث ساعات ، وهو يـدرى تماما ما يفعله .. ورغم ذلك فكل هذه التصرفات ليس مبعثهـا العقل الواعى .. إنها تنطلق من العقل الباطن .. نتيجة صراع مع العقل الواعى .. كل ما هناك أن العقل الـواعى ــ عقل الرجل المثقف ــ يـرفض أن يسلم بهزيمتـه أمـام العقل البـاطن .. فيتبنى هـذه التصرفـات .. يتبنـاهـا على أنها تصرفـاتـه هـو ــ أى العقل الـواعى ـ لا تصرفـات العقـل البـاطن .. ويستطيـع أن يجد لها من التحليل المنطقى مـا يقنع بـه نفسـه .. فيقول إن مـا يفعلـه ما هو إلا مجرد لهو بـدل أن يلعب القمار ، أو بدل أن يذهب إلى السينما .. وقد يقـول إنه يقوم بـدراسة اجتماعيـة لبنات الشارع .. وقـد يقول إنه مجرد شـذوذ العباقـرة .. إلى آخر

هذه التعليلات التى تلهيه عن الإحساس بخطورة تصرفه ، وعن الإحساس بالصراع النفسى والمعاناة النفسية التى يعيش فيها .

ولكن هذه التعليلات .. أو هذا التحليل المنطقى .. لا يقنع العقل الواعى إلا فترة محدودة تكفى لموافقته على ارتكاب الفعل الذى يطالب به العقل الباطن .. ثم بعد ذلك .. بعد أن يتم ارتكاب الفعل ، يذوب اقتناع العقل الواعى به .. وتبدأ حالة من المعاناة النفسية ، نسميها فى حياتنا العادية .. الندم !

وكلنا نتعرض لهذه المعاناة النفسية .. كلنا آتينا بأفعال أقرنا عليها العقل ، ثم بعد ذلك ثار العقل عليها .. ووقعنا فى الندم .. قد تقول كلمة نفاق لصديق .. أو قد تعلن – وأنت فى كامل وعيك – سرا من أسرارك .. أو قد تقرر أن تبتسم لفتاة ابتسامة لها معنى خاص .. ثم بعد ذلك تقع فى الندم .. وتظل حالة الندم تطاردك أياما طويلة .. أسابيع .. شهورا .. وتهز كيانك كلما تذكرت الفعل الذى أتيت به .. إلى أن تبتعد هذه الذكرى مع الزمن عن عقلك الواعى ، وتسقط فى عقلك الباطن ، فلا تعود تعانى الندم إلا إذا قفزت الذكرى مرة ثانية لسبب من الأسباب ، إلى عقلك الواعى .

فحالة الندم هى حالة وعى ، لا حالة غيبوبة أو حالة « لا وعى » كبقية الحالات النفسية .. فالدكتور حسن يعانى من وعيه بتصرفاته الشاذة لا من « لا وعيه » بها .. ولأن هذه

التصرفات تعتبر انحرافا حادا فى شخصيته بالنسبة لمكانته العلمية التى يحس ويزهو بها .. فإن معاناته تشتد .. وتشتد أكثر .. إلى أن تؤثر فى مركز أعصاب داخل المخ .. فيصاب بحالة الشلل المؤقت ..

بقى أن نعرف هذه التصرفات التى يأتى بها الدكتور حسن .

التصرفات التى يطلقها العقل الباطن ، ويتبناها العقل الواعى فى لحظة من اللحظات .

ولم أكن أستطيع أن أصل إلى هذا السر إلا عن طريق الدكتور حسن نفسه .

والدكتور حسن راقد فى فراشه مشلولا .. ولا أحد يدرى متى يستيقظ لسانه الراقد خلف شفتيه .. ربما بعد يوم .. ربما بعد أسبوع .. ربما بعد سنة .

وليس أمامى إلا أن اصبر ..

وقررت الصبر وأنا أضع أمامى مجموعة من النقاط الهامة التى توصلت إليها حتى الآن .. أولها أن الدكتور حسن بدأ يلتقط البنات الصغيرات من الشارع ، بعد زواجه بثلاث سنوات .. وقبل ذلك لم تكن له أى تصرفات شاذة .

وثانيها أن الدكتور حسن لا يندفع فى هذه التصرفات إلا وهو فى مصر .. ولا يرتكب شيئا وهو فى أوروبا ، رغم أن المجال هناك أوسع وأكثر أمنا .

والنقطة الثالثة ، هى التفاوت الكبير بين البيئة الشرقية

المحافظة التى نشأ فيها ، والآراء المتحررة التى يؤمن بها ، والتى يدافع عنها بحرارة ، كدفاعه عن حرية المرأة فى حرية الحب قبل الزواج .

والنقطة الرابعة : هى أن شذوذه منحصر فى تتبع البنات الصغيرات .. بنات الرابعة عشرة .. وإنه شذوذ جنسى .. بدليل تحسسه أنفه ، كلما مرت به فتاة صغيرة ، وبدليل أنه رفض أن ينام فى البيت عندما جاءت ابنة صديقة زوجته لتقيم فيه .. ثم بدليل أن كل بائعات اليانصيب اللاتى التقطهن من الشارع كن فى نفس السن ، سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة .

والنقطة الخامسة ، أن الحالات التى كانت تدفع الدكتور حسن إلى هذا الشذوذ ، كانت حالات متباعدة.. ست أو سبع حوادث خلال خمس سنوات .

وسجلت هذه النقاط فى مذكراتى الطبية ، ثم اتصلت بالسيدة حرم الدكتور حسن ، لأرجوها أن تعيد السائق إلى خدمتها ، كوعدى له .

وصرخت فى سماعة التليفون .

— لماذا ؟ أنت الذى أمرتنى أمس بأن أطرده ..

قلت :

— كنت أريد أن أضغط عليه ليتكلم ..

قالت بلهفة :

— وهل تكلم ؟

قلت :

— نعم ..

— ماذا قال ؟

ثم استطردت كأنها تحدد سؤالها :

— اقصد .. ماذا قال عن الدكتور حسن ؟

قلت فى هدوء أحاول أن ارطب به لهفتها :

— ليس هذا وقته .. ستعلمين كل شىء فى حينه .. كل ما أرجوه أن تعيدى السائق إلى الخدمة .. لقد وعدته !

وسكتت قليلا ثم قالت فى حدة وغيظ :

— حاضر .. مساء الخير ..

وألقت سماعة التليفون قبل أن تسمع رد تحيتها .

●●●

وفى اليوم التالى فوجئت بحرم الدكتور حسن فى عيادتى ، تصر على مقابلتى .. حالا .. واستقبلتها فى الفترة التى أخلو فيها إلى نفسى بين كل حالة وأخرى من الحالات التى أعالجها ..

كانت مضطربة .. عيناها قلقتان .. وشعرها ليس مستقرا على رأسها كما تعودته .. وثوبها ارتدته على عجل .. ليس مهندما كالعادة .. وقالت بسرعة وهى تخرج من حقيبتها علبة سجائرها الذهبية وتشعل لنفسها سيجارة .. وعود الثقاب يرتعش بين أصابعها :

— اسمع يا دكتور .. يجب أن أعرف ماذا قال لك

الأسطى صالح عن الدكتور حسن ؟

ولم أرد عليها .. سكت هنيهة ، فاستطردت قائلة وصوتها يعلو ويحتد :

— إنى زوجته .. ويجب أن أعرف كل شيء .. إنى أحق منك بمعرفة كل أسراره .

قلت فى هدوء :

— إنى طبيب .. والأسرار التى اسمعها تصلنى كطبيب .. ومهنتى تحتم علىّ أن احتفظ بها .. هذا ما يمليه علىّ شرفى وقسمى.

قالت :

— إنى أحاول أيضا أن أعالجه .. وقد احتملت فى علاجه حتى الآن ، أكثر مما يحتمل أى طبيب .. ثم إنى زوجته ..

وقلت محتفظا بهدوئى :

— هل تريدين شفاءه ؟

قالت فى حماس صادق :

— طبعا .

قلت :

— صدقينى أن معرفتك بأسراره لن تساعده .. على الشفاء .. لو كانت تساعده لصرحت لك بها .. فإن شفاءه هو الأهم ..

قالت وهى لا تزال محتدة :

— من أدراك أنها لن تساعدنى على شفائه ؟

قلت هادئا :

— إنى أدرى بمهنتى ..

وسكتت .. وغمست سيجارتها فى المنفضة قبل أن تتم تدخينها.. وقالت وهى لا تزال تضغط بأصابعها على السيجارة كأنها تقتلها :

— إذن لن تقول لى شيئا ..

قلت :

— لا .. لن أقول شيئا ..

قالت :

— سأسأل الأسطى صالح .. لن أعيده إلى الخدمة إلا إذا قال لى كل ما قاله لك ..

قلت وأنا انظر إليها جادا :

— إنك بذلك تقضين على زوجك .. إن معرفتك بهذه الأسرار ستجعل منك أداة للقضاء عليه نفسيا .. سيتحطم ..

قالت :

— إلى هذا الحد تعتبر أسرارا خطيرة ..

قلت :

— لا .. ليست أسرارا خطيرة ، ولكن معرفتك بها فى هذه المرحلة بالذات من مراحل العلاج ، هى الخطيرة ..

وسكتت ..

واستطردت قائلا بعد هنيهة :

— لقد احتملت كثيرا حتى الآن .. وكل ما أطلبه منك أن

تحتملى فترة أخرى .. وأنـا واثق أنها ستكون فترة قصيرة .. أرجوك .. ثقى بى ..

ومالت فى جلستهـا كأنها تستريح من حـدتها ، وأسندت رأسها على كفها ، ثم قالت بعد هنيهة ، فى صوت خفيض :

— وماذا تنوى أن تفعله الآن ؟

قلت وأنا ابتسم لها :

— سأنتظر انتهاء حالة الشلل .

قالت :

— وبعد ذلك ، أنت واثق من الشفاء ..

قلت :

— إنى لا أستطيع أن أثق إلا بعد أن يتم الشفاء فعلا..

قالت وهى تبتسم ساخرة :

— أنت دائما لست واثقـا من شـىء .. ولا متأكـدا من شىء ..

قلت :

— إنى على الأقل أصبحت متأكدا من أن الـدكتور حسن مريض نفسيا .

ونظرت إلىّ بدهشة ، وقالت :

— لم يكن يكفى أن أقول لك أنه مريض ، لتصدقنى ..

قلت وأنا ابتسم :

— الـواقع أنى كنت حـائرا .. لم أكن متأكـدا من منكما المريض ، وكل منكما يصف الآخر بالمرض .

ونظرت إلىّ وابتسامة ساخرة بين شفتيها .. ثم تنهدت فى أسى.. وقامت من جلستها !

وكتبت اسم دواء بسرعة على ورقة روشتة ، ومددت يدى بها إليها .. قالت :

— ما هذا ؟

قلت مبتسما :

— دواء مهدىء للأعصاب .. إنى واثق أنك فى حاجة إليه ..

قالت :

— ألا زلت تشك أنى مريضة ؟

قلت :

— لا .. ولكنك متعبة .. الأيام التى مرت بك كانت صعبة ..

وأخذت الروشتة من يدى ، وابتسامتها الساخرة تتسع فوق شفتيها .. وخطت نحو الباب .. وخطوت معها .. ووضعت يدى على أكرة الباب ، وتريثت قبل أن افتحه .. وعدت أقول لها :

— هل قلت لى فى زيارتك السابقة كل شىء ؟

قالت وهى تنظر إلىّ فى لوم :

— نعم .. كل شىء !

قلت :

— هل علاقتكما الزوجية الخاصة طبيعية ، كما قلت لى ؟

قالت :

— نعم .. أنا لم أكذب عليك .. ولكن لماذا ؟

وقبل أن أجيب ، استطردت قائلة :

— إنى أعرف أنك لن تقول لى لماذا عدت تسألنى هذا السؤال .. ولكن ثق أنى لو جننت فستكون أنت السبب ..

قلت متجاهلا كلامها :

— كيف حال الدكتور حسن اليوم ؟

قالت :

— أحسن .. لقد بدأ يحرك ذراعه ...

قلت :

— أوصيك به .. حاولى أن تعامليه برقة أكثر .. لا تشعريه أنك اتصلت بى مرة ثانية .. أو أننى اتصلت بسائقه ..

قالت وهى تتنهد :

— سأحاول ..

وخرجت ..

●●●

ومرت عشرة أيام ، كنت خلالها اطمئن على صحة الدكتور حسن بالتليفون .. وعرفت أن أزمة الشلل بدأت تخف أكثر .. بدأ يحرك لسانه .. ثم بدأ يتكلم .. ولكنه لا يزال فى الفراش مريضا ..

ولم يكن من خطتى أن أفرض نفسى على الدكتور حسن

مـرة أخـرى .. كـان يجب أن انتظـر أن يأتى إلىّ بنفســه .. وكنت اعتمـد فى ذلك على رؤيته لى أثنـاء أصابته بـالشلل .. وأنه أحس عنـدما رآنى بأنى كشفت عورته النفسيـة .. وأنه مضطـر بعـد ذلك إلى أن يأتى إلىّ كمـريض ، لا يستطيع أن ينكر مرضه ، أو يخفى علىّ عورته !

وفى اليوم العـاشر .. اتصل بى الدكتور حسن بـالتليفون يطلب تحديـد مـوعـد لمقـابلتى .. فى العيـادة .. وكـان يتكلم ولسانه ثقيل .. كأنه يبـذل مجهودا كبيرا لتحريكه .. وحددت له موعدا فى نفس اليوم .. الساعة الخامسة .

وجاء ..

يحاول أن يبـدو مغـــرورا مـزهـــوا كعـادتـــه ، ولكنــه لا يستطيع .. أنــه يقاوم الانهيـار .. يقـاوم بقوة ضخمـة .. وتترك المقاومة فى مظهر تصرفاته ضعفا واستسلاما ..

وجلس على المقعـد الكبير ، ورفع ساقـه الطويلـة فى بطء ووضعها فوق الساق الأخرى ، ثم شبك أصابعه فوق ركبته وقال وهو لاينظر إلىّ :

— لقـــد اعترفـت بينى وبين نفسى أنى قـــد أكـــون فى حــاجـــة فعــلا إلى طبيب نفســانى .. اقتنعت بكـــلامك بأن الإنسان لا يستطيع أن يغوص فى قاع المحيط إلا إذا استعان بحجر ثقيل .. وأن من يـريد أن يغـوص فى نفسه ، يجب أن يستعين بطبيب نفســانى .. بـــدلا من الحجـر الثقيل .. لهذا جئت إليك ..

قلت :

— إنى فى خدمتك !

قال :

— وسبب آخـر دفعنى إليك .. وهـو حـالـة زوجتى العصبيـة .. إنها رغم محاولاتها الكثيرة لضبـط أعصـابها ، أصبحت أكثـر عصبية .. وربما تهدأ عنـدما تعلم أنى بـدأت أتردد عليك .

قلت فى هدوء :

— إنها جزعة عليك ..

قال وهو يزفر أنفاسه ولسانه يتحرك بصعوبة :

— ربما ..

ثم انـزل ساقـه من فـوق الساق الأخـرى ، وقال وهـو يبتسم ابتسامة تسقط على جانب شفتيه :

— هل نبدأ الآن ؟

وقبل أن أجيبه قام من على مقعـده ، وخطا نحو الأريكة ، ورقـد عليهـا .. وتنهـد فى راحـة ، كأنـه فى حـاجة فعـلا إلى الرقاد ..

سرت وراءه دون أن أعلق بشىء .. وجلست خلف رأسه ، ونوتة المذكرات بين يدى لأسجل فيها كلامه .

وبدأ يتكلم ..

تكلم كثيرا رغم الصعوبة التى يعانيها فى الكلام .. ورغم ذلك لم يقل شيئا جديدا .. تفاصيل كثيرة عن بيئته المحافظة

وعن عقلية أبيه المتزمتة .. وعن أمه المحجبة . وأخته التى لم يكن مسموحا لها أن تطل من الشباك .. وعن دراسته .. وعن مغامراته النسائية القليلة .. ثم بدأ يتكلم عن زوجته .. وأيضا لم يقل شيئا جديدا أكثر مما قاله لى فى زيارته السابقة .. إلا أن قال إنه يعتقد أنها تحب السيطرة .. وأراد أن يتعدى هذا التعليق بسرعة .. ولكنى سألته :

— ماهو مظهر حبها للسيطرة ؟

قال ولسانه الثقيل يتحرك ببطء :

— إنها تجمع كل شىء فى يديها .. كل شىء .. يجب أن تعرف كل مليم يدخل جيبى .. وكل خطوة أخطوها .. ويجب أن تفرض نظامها على كل حياتنا .. هى التى تحدد أصدقاءنا .. وهى التى تأمر وتنهى فى الخدم .. وهى التى تختار مدرسة ابننا ..

قلت :

— لقد قرأت كثيرا فى علم النفس .. فكيف بررت حبها للسيطرة.

قال وهو يبتسم مزهوا بشهادتى له بأنه خبير فى علم النفس :

— ربما لأنها تعتقد أنها سيدة كاملة .. لا تخطىء أبدا ..

قلت :

— وهل تعتقد أنت أنها لا تخطىء أبدا ..

قال :

— لا .. ليس هناك إنسان لا يخطىء .

قلت :

— ما هى أخطاؤها ؟

قال :

— حبها للسيطرة مثلا ..

ثم انتقل بسرعــة ، وقبل أن اسألــه ســؤالا آخــر ، إلى الحديث عن ولده .. وبدأ لسانــه يتثاقل أكثر .. وبدأت عيناه تغفوان كأنه على وشك النوم .

قلت :

— هذا يكفى اليوم ، يا دكتــور .. إنك فى حاجة إلى النوم

قال وهو يقوم من رقدته وعلى شفتيه ابتسامة مريحة :

— أتدرى .. لقد اكتشفت أن مجرد الكلام راحة !

قلت وأنا ابتسم له :

— سنتكلم مرة أخرى ، بعد غد!

وخرج ، بعد أن حددت له موعدا استثنائيا .

●●●

وعاد إلىّ فى موعده بـالضبط .. واللهفة تبدو على وجهه .. لهفة إلىّ .. واختصر كـل المقدمـات ، ورقد على الأريكـة وبدأ يتكلم .. تكلم طويلا أيضا .. ولكنه لم يقل شيئا مما أريد أن يـواجهنـى ويواجــه نفســه بــه .. إنــه لا يــزال يــرفض الاستسلام .

وتركتــه يتكلم وأنا منتبه إلى كل كلمة يقـولها ، لعلى أجد

كلمة أستطيع أن أنفذ منها لأساعده على مواجهتى بالحقيقة.. ولكنه دائما شديد الذكاء .. لا يترك لى كلمة أنفذ منها إليه .

وانتهت الجلسة الثانية بلا أدنى تقدم .. وبدأنا الجلسة الثالثة.. بعد خمسة أيام .

وأخذ كالعادة يدور فى حديثه دون أن يقترب من شذوذه .. وتركته يتحدث .. نصف ساعة على الأقل .. وفجأة قاطعته ، وقمت واقفا من جلستى خلف رأسه وألقيت نوتة المذكرات على مكتبى ، وقلت فى لهجة جادة :

— لا أمل يا دكتور حسن .. إننا لن نصل إلى شىء ..

ورفع رأسه من فوق الأريكة ، وقال فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

قلت فى لهجة أكثر جدية ، كأنى نفضت يدى منه :

— اعنى أنك لا تثق بى .. ولا تحاول أن تثق بى ..

قال كأنه يستعطفنى :

— ولكنى أثق بك .. أن مجرد ترددى عليك دليل على ثقتى بك .

قلت :

— لا .. ليس هذا دليلا على الثقة .. إنك تأتى إلىّ لأنك تأمل أن اشفيك دون أن تقول لى شيئا من أسرارك .. إنك كالمريض بالسرطان الذى يقنع نفسه بأنه مصاب بالصداع وإنه يكفى أن يتناول قرصين أسبرين .. ان ما تفعله الآن

هو أنك تعالج نفسك بالأسبرين فى الوقت الذى تحتاج فيه إلى عملية جراحية ..

قال :

— لم يخطر على بالى شىء من كل ذلك .. إنى لا أحاول أن أخفى عنك شيئا .

وكنت أعلم أن حالته الصحية أصبحت تحتمل أى مفاجأة أطلقها عليه .. فقلت بنفس اللهجة الجادة دون أن أحاول أن أخفف منها :

— لقد أخفيت عنى كل شىء .. حدثتنى عن سفرك الكثير إلى الإسكندرية .. وعن أعمالك هناك .. وأصدقائك .. وبيتك .. ولكنك أخفيت أهم شىء .. أخفيت أنك كنت تذهب إلى هناك وتلتقط بائعات اليانصيب الصغيرات وتأخذهن إلى البيت .. و ..

وقفز جالسا فوق الأريكة .. وقال وعيناه متسعتان :

— من قال لك هذا الكلام ؟

قلت . وأنا أسرع واجلس فوق المقعد الموضوع بجانب الأريكة حتى لا اضطره إلى القيام من عليها :

— ليس مهما أن تعرف من قال لى هذا الكلام .. ولكن المهم أن تقوله لى أنت ..

وعاد وألقى جسده على الأريكة .. القاه مرة واحدة كأنه سقط فوقها مغشيا عليه .. وسكت برهة .. برهة طويلة .. ثم اغمض عينيه ، وقال كأنه يخاطب نفسه :

— هذه حياتى الخاصة .. كل رجل لـه حياته الخاصة .. ان أعظم الرجال قد نجده على علاقات مع خادمات.. إنه نوع من اللهو أكثر منه نوعا من الشذوذ .. وهو لهو عنيف .. هذا صحيح .. ولكنى قـرأت لك بحثا تقـول فيه ان الرجـل الذى يحمل مسئوليات كبيرة يحتـاج إلى اللهو العنيف لينسى هذه المسئـوليـات .. وأنـا أحمل مسئـوليـات كثيرة .. ضخمـة .. مرهقة .. وقد بـدا لى أن ألهو هذا النوع من اللهو .. كثير من العظماء يترددون على الأماكـن الحقيرة.. والنساء الحقيرات .. لمجرد اللهو .

وسكت بـرهة .. ابتلع ريقه .. وبلـل شفتيه بلسانـه .. ثم قال كأنه يحاول أن يقنع نفسه :

— إنه ليس شـذوذا جنسيا كما قد تعتقد .. ولكنـه نوع من الدراسات الاجتماعية .

وعاد يسكت ..

وسكت برهة أطول ..

وقلت استحثـه على الكلام قبل أن تضيـع قوة المفـاجأة التى دفعته ليتكلم :

— وبماذا خرجت من هذه الدراسات الاجتماعية ؟

وفتح عينيه .. وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة ، وقال :

— أتـدرى .. ليس بينهن بنت واحـدة عذراء .. بنـات فى الثانية عشرة .. ولسن عذارى !

ثم استطرد وابتسامته الساخرة لا تزال على شفتيه :

— ولكن .. هذا لا يهم ..

قلت :

— لماذا لا يهم .. بالعكس .. إنه شىء مثير ..

ورفع رأسه يحاول أن يرى وجهى .. ثم عاد وخفض رأسه ، وقال كأنه يلومنى :

— يا دكتور .. أنت رجل مثقف وتعلم أن عذرية البنت لا تعنى شيئا .. لا تعنى على الإطلاق أنها شريفة .. أو أن جسدها طاهر لم يمسسه بشر .. إن هذه العذرية ليست سوى وهم ابتكرته عقلية الرجل الشرقى .. العقلية التافهة الأنانية .. لقد اعتبر أن المرأة ليست سوى قطعة بضاعة .. شىء يجب أن يقدم إليه ملفوفا بورق السوليفان ومختوما بختم المحل .. ختم المحل فى نظره هو العذرية .. أو غشاء البكارة.. وهذا الرجل الشرقى الغبى لا يعلم حتى الآن أن ختم المحل هذا يباع عند أى طبيب جراح بخمسة جنيهات .. خمسة جنيهات فقط وتستطيع أى امرأة أنجبت عشرة أطفال أن تعود عذراء .. عذراء مزيفة .

كان يتكلم بانفعال غريب ، كأنه يدافع عن قضية كبرى .. عن إيمانه .. ولسانه الثقيل يترنح بقوة حماسه كأنه سكران ..

وخطر لى خاطر وأنا استمع إليه بكل أذنىّ ..

خاطر غريب ..

خاطر خطير ..

إنـه ليس خاطـرا .. إنه استنتـاج .. ولم يكن من حقى أن استنتج .. فإن خير وسيلة للعـلاج النفسانى هى ألا يستغل الطبيب استنتـاجه فى توجيـه المريض ، حتى يترك لـه مهمة كشف الطريق بنفسـه .. ولكن حالـة الدكتور حسن حـالة استثنائية .. فهـو يعرف الطريق .. وكل ما هنـالك أنه يهرب منـه.. لا يريـد أن يسـير فيـه .. فكان يجب أن أسـاعـده باستنتاجى .. أن اكتشف بنفسـى الطريق حتى أجره إليه ..

ورغم ذلك .. فقد ترددت .. خشيـت أن يكون استنتاجى كاذبـا .. والاستنتاج الكاذب أخطر على المريض .. أنـه يبعده أكثر عن الطريق .. يعطيه فرصة أكبر للهرب .

وعاد الدكتور حسن يتكلم ، وقد شجعه سكوتى .. بدا له أنه أقنعنى .. وقال ولسانه الثقيل يترنح كالسكران :

— الشرف يـا دكتور هـو شرف الروح ، شرف الفكـرة ، شرف الكلمة .. أما الجسد فـلا يمكن أن يكون شريفا أو غير شريف .. إن الجسـد هو الـوعاء الحيـوانى للإنسـان .. هل يمكن أن تكون الجاموسة شريفة أو غير شريفة .

ثم ارتفع صوته أكثر ، قائلا :

— بالله عليك يا دكتور .. كيف نوزع الشرف على أعضاء جسـد المرأة .. إذا لمست هذا الجزء لم يتـأثر شرف الفتـاة .. وإذا لمست هذا الجزء ضاع شرف الفتاة .. كلام فاضى ..

وسكت ريثما ابتلع ريقـه .. ثم ا ستطـرد كأنه يتم إلقـاء محـاضرة حفظها جيدا ورددها فى نفسه عدة مرات .

— إن العالم المتمدين يعلم أن الموضوع كله متعلق بتنظيم النسل ، لا بالشرف .. وهم لا يشغلون أنفسهم به إلا بقدر حاجتهم إلى تنظيم النسل .. لذلك تقدموا .. أعطوا طاقتهم الذهنية والفكرية للتقدم .. لبناء المدنية .. أما هنا فى الشرق .. فلأنهم لا يستطيعون أن يواجهوا الواقع .. لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم من فوق أقدامهم .. لا يستطيعون أن يتخلصوا من أنانيتهم .. أنانية الرجل الذى يصر على أن جسد المرأة بضاعة .. شىء يشتريه .. فقد ضاعت طاقاتنا فى كلام فارغ .

وتركته يتكلم حتى أفرغ كل ما فى صدره .

ثم قلت فى هدوء :

— وزوجتك ؟!

وسكت قليلا كأنه لم يسمعنى ، ثم انتفض جالسا فوق الأريكة ونظر إلىّ كأنه مذعور وقال ولسانه يكاد يموت خلف شفتيه :

— ماذا تقصد ؟

قلت بنفس الهدوء ، وأنا أسيطر على كل خلجة فى وجهى :

— هل كانت زوجتك عذراء ؟

وقفز واقفا ، وقال وأنفاسه تتلاحق :

— مادخل زوجتى فى هذا الموضوع .. بل ما دخل كل هذا الموضوع فى حالتى .. إذا كنت تصر على أن حالتى تستدعى العلاج.

وأنفاسه تتلاحق ..
وقطرات العرق تنبثق من جبينه .
وفمه مفتوح .. ينظر إلىّ فى حقد وغيظ ..وبقيت صامتا انظر إليه بعينين ثابتتين ..
وانطلق قائلا وهو يرتعش .. كل مافيه يرتعش :
— اسمح لى يا دكتور .. يبدو أنك لم تقرأ إلا كتابا واحدا فى علم النفس .. إن الآراء التى تدور فى رأسك كلها قديمة ..
قديمة .. لقد استحدث علم النفس نظريات أخرى .. حاول أن تطلع .. عن أذنك ..
وخطا نحو الباب ..
وعاجلته قائلا فى هدوء :
— لن يفيدك الهرب ..
والتفت إلىّ .. وعاد يقف مرتعشا .. ثم ترددت نظراته هنيهة .. وفجأة عاد إلى الأريكة ، وألقى نفسه عليها .. وقال وأنفاسه تتلاحق:
— زوجتى لم تكن عذراء .. ولكن هذا لا يهم .. لقد كانت تحب قبل أن تتزوج .. وكان من حقها أن تمارس حريتها فى الحب . . و ..
وقاطعته :
— هل قالت لك قبل الزواج أنها ليست عذراء ..
قال وصوته البطىء يحتد :
— لم تقل شيئا . ليس هذا موضوعا يثار بين اثنين من

المثقفين.. ولم نكن لا أنا ولا زوجتى نعلق عليه أى أهمية ..
هل تصبح امرأة أخرى مادامت ليست عذراء .. هل ..

وقاطعته مرة ثانية قائلا فى هدوء :

— وأختك ؟

وصرخ بأعلى صوته :

— مالها أختى ؟

وخفت صرخته .. ثم استطرد قائلا وابتسامة فيها حنان كبير تعلو شفتيه :

— أختى إنسانة أخرى .. أختى لم يمسها إلا زوجها .. إنها نقية كالبلور .. طاهرة كالملائكة .. وربما لم يكن لها فضل فى نقائها ، فقد تولى المجتمع الذى عاشت فيه حمايتها .. و ..

وقطع كلامه مرة واحدة ، ونظر إلىّ نظرة جادة قوية ، وقال فى صوت آخر :

— يادكتور ، أنا لا اسمح لك بالكلام عن أختى .. حتى ولو كان فى كلامك عنها شفائى .

قلت :

لن أتكلم عنها .. ولا اعتقد أننا أصبحنا فى حاجة إلى مزيد من الكلام .

ونظر إلىّ فى دهشة وبقية من أنفاسه المتهدجة لا تزال تتردد فى صدره .. وقال :

— ماذا تقصد .. هل انتهى العلاج ..

قلت :

— تقريبا ..

قال :

— كيف ؟

قلت :

— إنك تعرف الآن سر أزمتك النفسية التى تؤدى إلى إصابتك بالشلل !

قال :

— لا .. لا أعرف .

قلت :

— بل تعرف .. فكر قليلا .. وواجه نفسك .. وستعرف..

وحنى رأسه وقال بصوت مبحوح :

— تقصد زوجتى .. لأنها ليست عذراء .. ولكنى كنت طول الوقت أعرف أنها ليست عذراء .

ونقلت المقعد الذى كنت أجلس عليه حتى واجهته ، وقلت وعيناى فى عينيه :

— استمع إلىّ جيدا .. وسأروى لك تاريخ حياتك النفسية .. عندما التقيت بدرية واتفقتما على الزواج ، روت لك حكاية علاقتها بالرجل الذى أحبته قبل أن تلتقى بك .. ولأنك رجل مثقف فقد اقنعت نفسك بأن هذه العلاقة لا يمكن أن تعيبها ، ولا تستحق اهتمامك ، ولكن منذ هذه الفترة بدأت فى داخل نفسك معركة بين ثقافتك التى توحى

إليك بآرائك المتحررة .. وبين بيئتك المحافظة التى نشأت فيها .. أو بين المثل الأعلى للحرية ممثلا فى زوجتك ، والمثل الأعلى للطهارة ممثلا فى أمك وفى أختك .. ثم بعد ذلك .. بعد الزواج .. اكتشفت أن زوجتك ليست عذراء .. وحاولت أن تتجاهل هذا أيضا .. أبت عليك ثقافتك أن تناقش زوجتك فيه أو تحاسبها عليه .. فاشتد الصراع .. واشتد أكثر . أنهم يقولون دائما أن الشاب الشرقى المثقف يختار الفتاة التى يحبها بعقله ، ويختار الفتاة التى يتزوجها بعقل أبيه .. وقد أردت أنت أن تتجاهل عقل أبيك .. ولكن أباك كان دائما فى داخلك يذكرك بتقاليده ، وبآرائه ، وبتعاليم الدين ، وبالبيئة.. وأنت تتمادى فى تجاهله ، وتتمادى فى تحديه .. وكلما تماديت تمادى هو أيضا فى تذكيرك بنفسه .. والصراع يشتد .. ربما لم تكن تحس به .. ولكنه كان قائما .. قائما بين عقلك الواعى وعقلك الباطن .. ويشتد الصراع أكثر .. وأكثر إلى أن حدث بعد ثلاث سنوات أن التقيت بفتاة من بائعات اليانصيب وأخذتها إلى فراشك .. والواقع أنك لم تكن تبحث عن هذا النوع من البنات الرخيصات .. ولكنك كنت تبحث عن فتاة راقية فى مستوى زوجتك ، بدليل أنك أخذت بائعة اليانصيب وأدخلتها الحمام وبقيت تغسل فيها بيديك ثلاث ساعات وعطرتها ، وربما ألبستها قميص زوجتك الحريرى .. كل ما هنالك أنك لم تكن تستطيع ــ وأنت فى مركزك ــ أن تغازل بنتا من بنات العائلات .. خصوصا وقد

كنت محتاجا فى معركتك إلى بنت صغيرة .. فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة .. لماذا .. كى تكون أقرب إلى البنات العذارى .. وكنت تحاول بذلك ـــ دون أن تتعمد طبعا ـ أن تنصر عقلك على عقل أبيك .. أو عقلك الــــواعى على عقلك الباطن .. فإذا وجدت البنت التى التقطها عذراء فعلا ، أثبت لعقل أبيك أن البنات العذارى لسن شريفات .. وإذا لم تكن عذراء أثبت له أنه لم يعد هناك بنات عذارى حتى البنات الصغيرات .. وقد كنت تفرح .. تفرح جدا .. عندما تتأكد أن البنت ليست عذراء .

وكان الدكتور حسن يتابعنى باهتمام شديد ، ثم قاطعنى قائلا:

ـــ ربما كنت أفرح فعلا .. ولكن لماذا ؟

قلت :

ـــ لا .. بدليل إنك عندما كنت تسافر إلى أوروبا لم تكن تلتقط البنات الصغيرات .. لماذا .. لأنك هناك تكون بعيدا عن زوجتك فتهدأ حدة الصراع النفسى .. وعندما تعود ، تبدأ فى التقاط البنات الصغيرات من جديد .. لأن وجود زوجتك بجانبك يوقظ حدة الصراع .

وسكت الدكتور حسن طويلا .. ثم قال وصوته مخنوق فى حلقه :

ـــ ولماذا أصاب بالشلل ، إذا كان هذا صحيحا .

قلت :

— لأنك كنت تخدع نفسك أثناء علاقتك ببائعة اليانصيب .. وبعد أن تنتهى علاقتك بها .. وتكف عن خداع نفسك ، يتنبه عقلك الواعى إلى فظاعة فعلته .. وتبدأ حالة الندم .. هذا الندم ، هو الذى يصيبك بالشلل .

قال وهو يشد أصابع يديه كأنه يحاول أن يخلعها من يديه ، ورأسه لا يزال منكسا :

— لنفرض أن كل هذا صحيح .. ماذا افعل .. هل اطلق زوجتى؟

قلت :

— لا .. ولكنك يجب أولا أن تقنع بأن ما قلته لك ليس مجرد فرض ، إنه حقيقة .. وعندما تقتنع بأنه حقيقة ستكف عن التقاط البنات الصغيرات لأنك تعلم أنهن سبب نوبات الشلل .. وأنت تخاف الشلل .. ثم بعد ذلك اعترف بالقيد الثقيل الذى يربط بين آرائك المتحررة وبيئتك المحافظة ، وإنك لن تستطيع أن تحطم هذا القيد .. اعترف بأنك كنت تفضل لو أن زوجتك كانت عذراء .. وانها ارتكبت خطيئة يوم فرطت فى عذريتها ..وناقشها .. وحاسبها .. دعها تستغفر لك .. وتتوسل إليك .. لترضى طبيعة الرجل الشرقى فيك .. إن تصرفاتها هى التى ستحدد علاقتك بها ، ومصير زواجكما .

قال بسرعة :

— لا .. لن استطيع أن أناقشها .. ولا أن أحاسبها ..

قلت فى إصرار :

— هذا ارحم من أن تنتقم منها .. وقد كانت حالتك تنحرف نحو شهوة الانتقام دون أن تدرى .. لقد كنت تحاول أن تدفعها للجنون .. وكنت تقنع نفسك أنك فقط توارى جنونك عنها وعنى .. ولكن الواقع أنك كنت قد بدأت تنتقم منها .. ثم .. إن اتهامك لها بحب السيطرة ، ليس إلا حجة تحاول أن تقنع نفسك بها لتبرر انتقامك منها ..

قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة :

— إذا لم تكن تحب السيطرة .. فهى على الأقل شخصية قوية..

قلت :

— هذا يسهل عليك كل شىء .. إن الشخصية القوية أقدر على مواجهة المواقف الحرجة .

وظلت ابتسامته الساخرة عالقة بين شفتيه ثم قام واقفا ، وقال:

— اعتقد أننى فى حاجة إلى أن أخلو بنفسى .. شكرا يا دكتور ..

قلت وأنا أودعه حتى الباب :

— إنك فى حاجة إلى وقت حتى تقرر ما تفعله .. وفى خلال ذلك اعتقد أنك فى حاجة إلى لقائى .. فقط لنتحدث .

وحددت له موعدا آخر ..

وعـاد الدكتـور حسن إلىّ مـرة .. ومرتين .. وفى كل مـرة يـدور الحديث بيننا طـويلا .. مفصـلا .. يحاول خلالـه أن يزداد اقتناعا بحالته .

وبعد زيـارته الثـانية ، زارتنى زوجته بعـد موعـد انتهاء العيـادة .. كـانت حـائرة .. تبـدو كأنها تسير فى ضبـاب .. وقالت فى لهفة :

— مـاذا حــدث يا دكتـور .. مـاذا اكتشفت من حـالـة زوجى ..

قلت :

— زوجك شفى .. لن يصاب بالشلل مرة ثانية ..

قالت :

— لا اعتقـد .. إنـه يتغير إلى إنســان آخـر .. إنـه يتكلم كثيرا.. ويتكلم فى لهجـة حـازمـة غـريبـة .. كل كلمـة منـه أصبحت أمرا .. ثم إنى الاحظ أنه يتجنبنى ..

قلت :

— أنها مظاهر الشفاء ..

قالت فى ضيق :

— أرجوك يا دكتور .. أريد أن أعرف كل شىء .

قلت :

— ستعرفين .. الدكتور حسن سيقول لك كل شىء .

قالت :

— متى .. إنى أكاد أجن ..

قلت :

— قــريبــا .. إنى واثق أنــه سيقـول لـك كل شىء .. وأرجوك عندما تعرفين حاولى أن تفهميه .. أن تعذريه .

قالت والجزع فى عينيها :

— ولكن ..

قلت وأنا أمد لها يدى :

— ثقى بى .. إنك مهما تحملت من عـذاب الانتظار ، فلن تتعذبى قدر ما تعذب ..

وعادت تقول :

— ولكن يا دكتور ..

قلت وأنا أصافحها :

— أرجوك .. ثقى بى ..

رقم الإيداع ٩٠٤٨ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 -0663 - 3

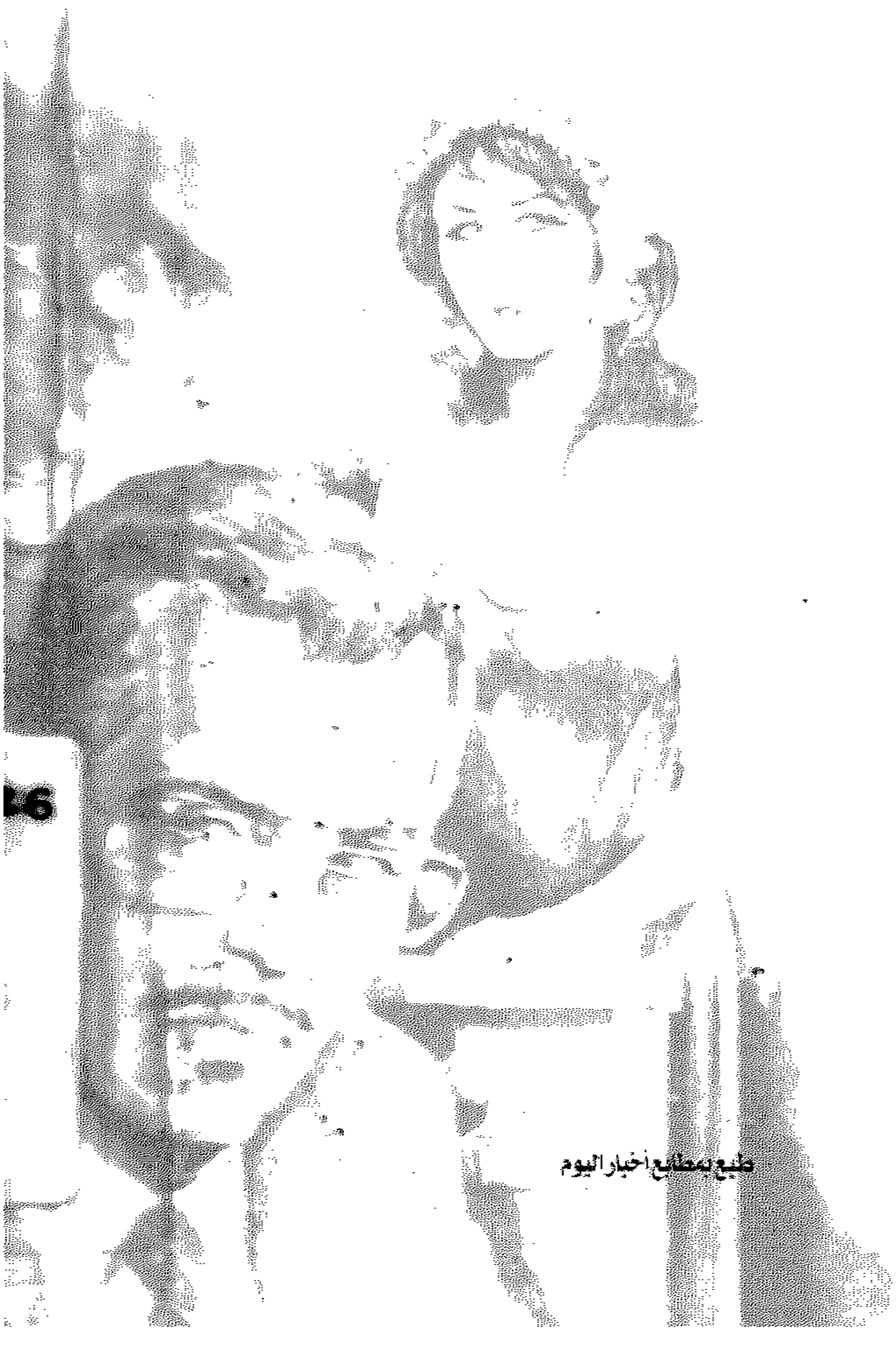

طبع بمطابع أخبار اليوم

To: www.al-mostafa.com